

أَعْمَالُ الْقُلُوبِ

أو

المَقَامَاتُ وَالْأَحْوَالُ

لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ

تَقِيُّ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنَ تَيْمِيَّةَ

(٣٦٠هـ)

وقد طبع من قبل باسم «التحفة العراقية في الأعمال القلبية»

تم التحقيق بمعرفة الدار

دار الصحابة للنشر والتوزيع بطنطا

كِتَابُ قَدْحَى دُرِّا بِعَيْنِ أَحْسَنِ مَحْفُوظَةٍ
لِهَذَا قُلْتُ تَنْبِيْهَا
حُقُوقُ الطَّبِيعِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

دار الصحابة للتراث والطباعة

للنشر - والتحقيق - والتوزيع
شارع المديريّة - أمام محطة بئر عيون التعاون
ت: ٣٣١٥٨٧ ص: ٤٧٧ ب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق :

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله الله بالهدى ودين الحق ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ، الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ .

وبعد :

فبين أيدينا كتاب قيم لعالم فاضل وحافظ جليل ألا وهو شيخ الإسلام ابن تيمية يتناول فيه بعض أعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله ، والتوكل على الله ، وإخلاص الدين له ، والشكر له ، والصبر على حكمه والخوف منه ، والرجاء له ، وما يتبع ذلك من أعمال القلوب ، وبيان مقامات الناس فيها وأحوالهم ، رداً بذلك على بعض الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة مثل الحلولية والقدرية والصوفية ، وذلك بأسلوبه العلمي الواضح القائم على اتباع الكتاب والسنة بعيداً على المذاهبيات والتقاليد التي لا تستند إلى دليل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ذلك هو سر النور الذي يشع من كتاباته رحمه الله تعالى وهذا الكتاب خير دليل على ذلك ، فدونك هذا الكتاب ففر به .

منهج العمل في الكتاب :

١ - فقد قابلنا المخطوطة على طبعة المطبعة السلفية فما وجدناه مختلفاً عن طبعة السلفية وموافقاً لطبعة مجموع الفتاوى وضعناه بين معكوفتين وما زاد من المخطوطة على الطبعتين اثبتناه بين معكوفتين وأشرنا إليه أنه زيادة من المخطوطة .

٢ - قمنا بعزو الآيات القرآنية إلى أماكنها في المصحف الشريف .

٣ - قمنا بتخريج الأحاديث النبوية المرفوعة وغزوناها إلى مصادرها مع تبين صحة الحديث من ضعفه وذلك من كلام العلماء ، ولم يكن قصدنا في هذا الكتاب التوسع في التخرج بصورة كبيرة .

٤ - قمنا بعمل عناوين توضيحية لتيسر للقارئ مهمته ووضعناها بين معكوفتين .

وأخيراً نسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا الكتاب الإسلام والمسلمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصف مخطوطة كتاب « أعمال القلوب » .

عثرنا بفضل الله تعالى على مخطوط هذا الكتاب الطيب في دار الكتب المصرية العامة . ويقع المخطوط تحت رمز تصوف تيمور برقم (٢٧١) ومنه نسخة ميكروفيلمية برقم (٢٦٧٦٥) .

عدد صفحات المخطوط (٣٧) صفحة ، في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً وقد كتبت المخطوطة بخط جيد .

الناشر

أبو حذيفة

إبراهيم بن محمد

بسم الله الرحمن الرحيم
قَالَ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَفِي الْقَلْبِ بَعْدُ
بالخفة للعرفانية
زيد دهرم وحيدر عصم نقيته المحمد بن قدوة المحققين تاج العارفين لسان المتكلمين
نقي الدين ابو العباس احمد بن عبد الحكيم بن عبد السلام بن تيمية الحرلي رفع الله والتعالي
ذكره واعلاني الدارين قدس وعرف لنا وله ولجميع المسلمين . الحمد لله نستعيد ونستعيد
والمستعملين ويعود بالله من شر ورايسا ومن سيئات العالمين يهدي الله ولا يصلح له
يصلح ولا هادي له ويستمد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ويستمد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له
صلواته عليه وعلى اله وسلم تسليماً
قد تسمى المقامات او الاحوال وهي من اصلى الايمان وفق اعد الدين مثل بحمد الله ورسوله
والتوكل على الله والخلاص الدين له والشكر له والصبر على حكمه والخوف منه والرجاء له وما يتبع
ذلك اقتضى ذلك بعض من اوجب الله حقه من اهل الايمان واستكنبها وكل ما ينبغي لان
هذه الاعمال جميعها واجبة على جميع الخلق للمؤمنين في الاصل
باتفاق ائمة الدين والناس فيها على ثلاث درجات كما هي في اعمال الابرار على ثلاث درجات
طاهر لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات فالطاهر لنفسه الخاص بترك ما موزن وفعل محظور
والمقتصد المؤدي للواجبات والتارك للحرمان والساكن بالخيرات التقرب مما يقدر عليه من
واجب ومستحب والتارك للمعصية والمكر والافكار ان كان كل من المقتصد والسابق قد تكون له ذنوب
نحو غيبة ما يتقرب والله بحمد الله ابن وحج المتطهرين واقتضات ما حبه وامامه صاحب
مكفرته واما غير ذلك وكل من الصنفين المقتصدين والسابقين من اولياء الله فان اولياء
هم الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا
وكانوا يتقون فخذ اولياء الله هم المؤمنون المتقون ولكن ذلك ينقسم الى عام وهم المقتصدون
وخاصة وهم السابقون وان كان السابقون على درجات كما لا يبيدوا الصديقين وقد ذكر
البيهقي رحمه الله وسلم القسبي في الحديث الذي رواه البخاري وصححه عن ابي هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله تعالى من عادي لي ولما قد بارزني بالحق
وما تقرب الي عدي بمثل اذ آو ما اقترحت عليه ولا يزال عدي يتقرب الي بالاول حتى احبه
فاذا احبته كنت سمعه الذي يسمع به وبصر الذي يبصر به ويحيي الذي يحيي به ويقتل الذي يقتل به
ويحيي عافى يسمع ويحيي يبصر ويحيي يبطل ويحيي يبيد ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني
لاعيذه وما تزدت عن شيء انا فاعله قد دعيت مع قضي نفسي عدي المؤمن بكرة الموت وكره
مساة ته ولا بد لمنه واما الظاهر لنفسه من اهل الايمان فعه من ولايته الله بقدر ما يمانه

وتفقوا كما معه من صدق ذلك بقدره فمخبره اذ الشخص الواحد قد يجمع بين الكسب والالتفات
والسلبات التقضية للعدل حتى يمكن ان يتأهب ويعاقد وهذا هو جميع اصحاب
روح الله صلى الله عليه وسلم وامة الاسلام واهل السنة والجماعة الذين يتقوا ربهم الله الخالق
البارئ في قلته متقائل من اذن من ايمان وامثا العائدين بالتجديد من الحجاج والمعتمرين
القائمين بالله لا يتردد من العار من دخلها من اهل التوبة والله لا شناعة للسرور ولا عبرة في اهل
الكاره اقل من ذلك ولا يورعوا بعد ما لم يقع في الخسب الواحد ثواب وعقاب وحسنات
وسبائت لم يلزم انهم يعرفون ترتيب ذلك بل هذا الاصل من الكتاب والسنة
واجاز سلب الامانة كتحقيق ليس هذا امومه قدس طناه في مواضعه وبني عليه اموات
ولهذا من كان معه ايمان حقيقي فالمر ان يكون معه من هذه الاديال بقدر ايمانه وان كان له ذنب
لا يورث الحجاج ويصحى من عزم الخطاب صلى الله عليه ان رجلا كان يبيع حمارا وكان يفتخر
الذي صلى الله عليه وسلم وكان يشرب الخمر ويحمله النبي صلى الله عليه وسلم فاتي به مع فقال
رجل لعله الله ما كنت اريك بهذا الذي يصلي الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم
لا تلعنه فانه قد عرفه ورسوله فقال لا ايسر ان الدين بالشرب ويحرم تركون عيابه الله
ورسوله وحش الله ورسوله لا اوتق عيب الايمان لان العابد الراهب قد يكون لما في قلبه
من درجة اوفاق حتى طمس ذلك الوجه عند الله ورسوله كما استقام في الصحاح وفيها
من حديث امير المؤمنين علي بن ابي طالب والى جعل الكبري وعزمي هاجن النبي صلى الله
عليه وسلم اذكر اني سمع رجلا يقول ان الله لا يسلطه مع صلاتهم وصياهم مع صياتهم
وقرآنه من قرآنهم يقولون القرآن الامور حارهم ويرفون من الاسلام كما يمين لهم من
الدية انما التبع ما قلهم فان احد الله لم قلهم يوم القيمة لا ادر كم اراهم
فلهذا هو ههنا قلهم لاصحابهم صلى الله عليه وسلم مع امير المؤمنين علي بن
ابي طالب صلى الله عليه وسلم وقال فتم السج صلى الله عليه وسلم في الكبريت الصبي عرف
ما رقة علي من رقة من السج يتلهم اذ في الحقيق لله ان قال اية في الاسلام
كسعين الثوري وعبر ان الدينة احد الاليس من العصية لان الدينة لياتب منها
والعصية تليها معها ومعني قلهم ان الدينة لا تليها منها ان المبدع الذي يتخذ دينه امر
يشعره الله ورسوله قد يرتب له عي عليه وحسناته لا يتوب الا من عاد امره حسنا لان اول
التوبة العلم ان فعله سيئ النبي صلى الله عليه انه ترك حسنا ما امر به امر الجاهل و امر السقيط
ليتوب فيفعله فاما امره صلى الله عليه وسلم فهو سيئ فترى الامور انه لا يتوب ولكن
التي تبهته فكله واقعة بان الله به الله ويشعره حتى يتبين له الحق كما هو في حقايقه
من هذه من الكفار والمنافقين وطوائف من اهل البدع والضلال وهذا يكون بان يتبع

قال الحق ما علمه فمن عمل ما علم ورثه الله طهر ما لم يعمل كما قال الشيخ والذين اهتدوا
 بآله هدى وأتاهم تقى لهم وقال تعالى واللو لم نعم فصلوا ما يؤمنون عطفوا به لكان خير لهم
 واشتد تنبيهاً واذ ألتبسوا هم من الداء أجاز عطاياهم وأهداهم صراطاً مستقيماً
 وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأمنوا برسوله له كن كقولين من رغبته
 ويعمل أكثر من أن يشق منه ويعف عن كثرة غفوره رحم وقال تعالى ولا تطعوا من الله
 ولئلا الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور وقال تعالى قد جاءكم من الله نور وكتاب
 مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور
 كدلك منكم أمة صريحت أصابع الحق الذي علمه متعاليها فان ذلك يومئذ الكمال والعلو
 حتى يعجز قلبه عن الشيء الواضح كما قال تعالى لا تعقلوا زلزالوا الله قلوبهم واسمه لا يقدر على الشيء
 العاقل حتى وقال تعالى لهم من وراءهم الله مصداقاً وقال تعالى واقضوا الله به جهنم بآياتهم
 لين جالته كبره فيمنع من أقالها أحوالاً عند الله وما يشعركم أيتها الأجنات التي تموت وتقلب
 أوتيداً قد وصلكم كالم يومئذ به أو لمصرع ونذرهم فطناً بهم يعجبون وهن زانها
 لمي والحار وحادير كبر أفعالها أذابات الأوثان وبناها القلب أوتيداً قد وصلكم ربهم
 كما لم يؤمن به أو لمصرع وعلموا من وراءه من قبل أيتها الكسرى كنون حرمها أيتها الأحداث التي
 وتقلب أوتيداً قد وصلكم ربهم كالم يومئذ به أو لمصرع ولعلها قال من قال في السيف
 كسعيد بن جبيرة وغيره أن من فشا الحسنة المحسنة بغيرها وان من عقق به
 المسببة المسببة بغيرها وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه
 عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم الصدقة فإن الصدقة يهدي إلى البر
 وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدقة حتى يكتب عند الله
 صديقاً وإكروا أكثرب فأن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال
 الرجل يصدق ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً أخبر النبي صلى الله عليه وسلم
 أصلاً يستلزم البر فإن الكذب أصل يستلزم الفجور وقد رتب الله أن البر لا يزال
 وإن الفجور لا ينجح ولهذا كان بعض المشايخ إذا أمره من متبعيه بالتوبة واجب
 أن لا يفرغ ولا يتخلف قلبه أمره بالصدق وكذا ما يكتب في كلام مشايخ الدين وأما
 ذكر الصدقة والاختصاص حتى يقع بول فيقال لا يصدره لا يتبعني ويقولون الصدقة
 ما صدق الله على من لا يضع على شيء إلا قطعها ويقع ليسوف بن أسباط وغيره
 ما صدق الله على إلا صدق له وأمثال هذا كثير والصدق والاختصاص هي
 الحقيقة تحقيق الأيمان والإسلام فأن الطهرين للإسلام ينقسمون إلى

بسم الله الرحمن الرحيم

[قال شيخ الإسلام ومفتى الأنام فريد دهره ووحيد عصره بقية المجتهدين ،
قدوة المحققين ، تاج العارفين ، لسان المتكلمين ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن
عبد الحلیم بن عبد السلام بن تیمیة الحرانی ، رفع الله في الثقلين ذكراه ، وأعلا
في الدارين قدره ، وغفر لنا وله ولجميع المسلمين] (١)؛

[مقدمة المصنف]

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات
أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله . ﷺ .

أما بعد : فهذه كلمات مختصرات في أعمال القلوب - التي قد تسمى
« المقامات والأحوال » - وهي من أصول الإيمان ، وقواعد الدين ؛ مثل محبة الله
ورسوله ، والتوكل على الله ، وإخلاص الدين له ، والشكر له ، والصبر
على حكمه ، والخوف منه ، والرجاء له ، وما يتبع ذلك . اقتضى ذلك بعض
من أوجب الله حقه من أهل الإيمان ، واستكتبها وكل منا عجلان .

أعمال الأبدان

[الظالم لنفسه - المقتصد - السابق بالخيرات]

فأقول : هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق - المأمورين
في الأصل - باتفاق أئمة الدين ، والناس [فيها] على « ثلاث درجات » كما هم
في أعمال الأبدان على « ثلاث درجات » (١) ظالم لنفسه ، (٢) ومقتصد ،
(٣) وسابق بالخيرات .

فالظالم لنفسه : العاصي بترك مأمور أو فعل محظور .

(١) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط ليس موجوداً في الطبعتين .

والمقتصد : المؤدى الواجبات والتارك المحرمات .

والسابق بالخيرات : المتقرب بما يقدر عليه من فعل واجب [ومستحب]
والتارك للمحرم والمكروه . وإن كان كل من المقتصد والسابق قد يكون له ذنوب
تمحى عنه : [إما] بتوبة - والله يحب التوابين ويحب المتطهرين .
وإما بحسنات ماحية ، وإما بمصائب مكفرة ، وإما بغير ذلك .

وكل من الصنفين المقتصدين والسابقين من أولياء الله الذين ذكرهم
في كتابه بقوله : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ
آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٢) [فحد] أولياء الله : هم المؤمنون المتقون ، ولكن
ذلك بنقسم : إلى « عام » ، وهم المقتصدون و « خاص » وهم السابقون ،
وإن كان السابقون هم أعلى درجات كالأنبياء والصديقين .

وقد ذكر النبي ﷺ « القسمين » في الحديث الذى رواه البخارى
في صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله من
عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت
عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه
الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجاله التى
يمشى بها ، فبى يسمع وى يبصر وى يبطش وى يمشى ، ولئن سألتنى لأعطينه ،
ولئن استعاذنى لأعيذنه . وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس
عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » (٣) .

(٢) سورة يونس : الآية ٦٢ .

(٣) أخرجه البخارى [٣٤٠/١١ - ٣٤١ / فتح] وأبو نعيم في الحلية [٤/١]
والبيهقى في الكبرى (٢١٩/١٠) وفي الزهد [٦٩٦] وفي الأربعين الصغرى [٣٤] والبعوى في
« شرح السنة (١٩/٥) والذهبي في الميزان (٦٤١/١) من طريق خالد بن مخلد ، حدثنا
سليمان بن بلال ، حدثنى شريك بن عبد الله بن أبى نمر ، عن عطاء عن أبى أبى هريرة .
بدون هاتين الزيادتين (فبى يسمع وى يبصر وى يمشى) (ولا بدله منه) . -

وأما الظالم لنفسه من أهل الإيمان : فمعه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه ، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره [إذ الشخص الواحد قد يجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب ، والسيئات المقتضية للعقاب ، حتى يمكن أن يثاب ويعاقب ، وهذا قول جميع أصحاب رسول الله ﷺ ، وأئمة الإسلام وأهل السنة والجماعة الذين يقولون : إنه لا يخلد في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان .

وأما القائلون بالتخليد : كالخوارج^(٤) والمعتزلة^(٥) القائلين أنه لا يخرج من النار من دخلها من أهل القبلة ، وأنه لا شفاعاة للرسول ولا لغيره في أهل الكبائر ، لا قبل دخول النار ولا بعده ؛ فعندهم لا يجتمع في الشخص الواحد ثواب وعقاب ؛ وحسنات وسيئات . بل من أثيب لا يعاقب ، ومن عوقب لم يثب . ودلائل هذا الأصل من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة كثير ليس هذا موضعه وقد بسطناه في مواضعه .

= فأما الأولى فقال الشيخ الألباني في صحيحته (١٩١/٤) : قد ذكرها الحافظ - يعني ابن حجر في الفتح - في أثناء شرحه للحديث نقلاً عن الطوفي ولم يعزها لأحد . أما الثانية : أخرجها أبو نعيم في الحلية (٣٢/٤) من طريق إبراهيم بن الحكم : حدثني أبي : حدثني وهب ابن منبه قال :

« إني لأجد في بعض كتب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إن الله تعالى يقول : ما ترددت عن شيء قط ترددي عن قبض روح المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ولا بد له منه) قال الشيخ الألباني في صحيحته (١٩٠/٤) : وإبراهيم هذا ضعيف ، ولو صح عن وهب فلا يصلح للشهادة لأنه صريح في كونه من الإسرائيليات التي أمرنا بأن لا نصدق بها ولا نكذبها .

(٤) الخوارج : هم الذين خرجوا على الإمام علي رضي الله عنه إبان التحكيم ، وقالوا : « إن الحكم إلا لله » أي لا حكم ولا تحكيم إلا لله ، وسموا أنفسهم الشراة وانقسموا إلى أربع فرق : النجدية ، والصفورية ، والإباضية والأزارقة وانقسمت كل فرقة إلى فرق متعددة .

انظر : الفرق بين الفرق ت محمد محي الدين عبد الحميد .

(٥) المعتزلة : فرقة من المتكلمين يخالفون أهل السنة في بعض المعتقدات ، على رأسهم واصل بن عطاء الذي اعتزل بأصحابه حلقة الحسن البصري .

وينبني على هذا أمور كثيرة ، ولهذا من كان معه إيمان حقيقى فلا بد أن يكون معه من هذه الأعمال بقدر إيمانه ، وإن كان له ذنوب .

كما روى البخارى فى صحيحه عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - « أن رجلاً كان [يسمى]^(٦) حماراً ، وكان يضحك النبى ﷺ . وكان يشرب الخمر ، ويجلده النبى ﷺ ، فأتى به مرة فقال لرجل لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ : لا تلعه فإنه يحب الله ورسوله »^(٧) .

فهذا يبين أن المذنب بالشرب وغيره قد يكون محباً لله ورسوله ، وحب الله ورسوله أوثق عرى الإيمان ، كما أن العابد الزاهد قد يكون لما فى قلبه من بدعة ونفاق مسخوطاً عليه [عند الله ورسوله من ذلك الوجه]^(٨) ، كما استفاض فى الصباح وغيرها من حديث [أمير المؤمنين] على بن أبى طالب وأبى سعيد الخدرى وغيرهما عن النبى ﷺ أنه ذكر الخوارج فقال : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، أينما لقيتموهم فاقتلوهم ؛ فإن فى قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة ، لمن أدركتهم لأقتلهم قتل عاد »^(٩) .

(٦) فى المخطوط : يدعى .

(٧) أخرجه البخارى (١٢/٧٥/فتح) وأبو يعلى (١٧٦) والبيهقى (٣١٢/٨) واللفظ له ، والبيهقى (٣٣٦/١٠) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرفوعاً . ولفظ البخارى وأبى يعلى البيهقى « لا تلعه ، فوالله ما علمت إلا أنه يُحبُّ الله ورسوله » .

(٨) فى المخطوط : من ذلك الوجه عند الله ورسوله .

(٩) أما حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(..... إن من ضغىء هذا قومًا يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . لمن أدركتهم لأقتلهم قتل عاد) .

وهؤلاء قاتلهم أصحاب رسول الله ﷺ مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بأمر النبي ﷺ .

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق » (١٠) .

أخرجه البخارى (٦١٨/٦) ومسلم (٧٤١/٢) واللفظ له ، وأبو داود (٤٧٦٤) والنسائى (٤١٠١) والبيهقى (١٦٩/٨) وأحمد (٧٣/٦٨/٣) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه مرفوعاً . أما حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يأتى فى آخر الزمان قومٌ حُذِثَ الأَسنان ، سُفِهَاءُ الأحلام ، يقولون من خير قول البرية ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهمٌ من الرمية ، لا يجاوز إيمانهم حاجرهم فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة .

قطعة من حديث :

أخرجه البخارى (٦١٨/٦) واللفظ له ، ومسلم (٧٤٦/٢) عبد الباقي (٧٤٦/٢) وأبو داود (٤٧٦٧) والنسائى (٤١٠٢) والبيهقى (١٧٠/٨) وأحمد (٨١/١) و ١١٣ و ١٣١) من حديث على رضى الله عنه مرفوعاً .

(١٠) أخرجه مسلم (٧٤٦/٢) عبد الباقي (٧٤٦/٢) وأبو داود (٤٦٦٧) والبيهقى فى دلائل النبوة (٤٢٤/٦) وأحمد (٣٢/٣) والنسائى فى خصائص على (١٦٣) من طريق أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق) واللفظ لمسلم .

[خطر البدعة وأثرها على التوبة]

ولهذا قال أئمة الإسلام كسفيان الثوري^(١١) وغيره إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن البدعة لا يتاب منها ، والمعصية يتاب منها .

ومعنى قولهم أن البدعة لا يتاب منها : إن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسناً فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً ، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه ، أو [بأنه] ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب ويفعله .

فما دام يرى فعله حسناً وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب .

ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف [من] أهل البدع والضلال ، وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه ، فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾^(١٢) وقال تعالى : ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم . وأشدّ تثبيتاً وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً ﴾^(١٣) .

(١١) سفيان الثوري : سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، أمير المؤمنين في الحديث كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى ، ولد ونشأ في الكوفة ٩٧ هـ وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم فأبى وخرج من الكوفة سنة ١٤٤ فسكن مكة والمدينة وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً ١٦١ هـ له من الكتب (الجامع الكبير) (والصغير) في الحديث ، وكتاب في (الفرائض) انظر [الأعلام / للزركلي ١٠٤/٣] دار العلم للملايين .

(١٢) سورة محمد الآية : ١٧ .

(١٣) سورة النساء : الآية ٦٦ .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ (١٤) وقال تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ (١٥) وقال تعالى : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ (١٦) . وشواهد [هذا] (١٧) كثيرة في الكتاب والسنة .

[ضرر اتباع الهوى]

وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذى يعلمه [تبعاً] (١٨) لهواه فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح ، كما قال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (١٩) . وقال تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ﴾ (٢٠) وقال تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل : إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ (٢١) وهذا استفهام نفى وإنكار : أى وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، وأنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة على قراءة من قرأ (إنها) بالكسر تكون جزءاً بأنها إذا جاءت

(١٤) سورة الحديد : الآية ٢٨ .

(١٥) سورة البقرة : الآية ٢٥٧ .

(١٦) سورة المائدة : الآية ١٥ .

(١٧) في المخطوط : ذلك .

(١٨) في المخطوط : متبعاً .

(١٩) سورة الصف : الآية ٥ .

(٢٠) سورة البقرة : الآية ١٠ .

(٢١) سورة الأنعام : الآية ١٠٩ ، ١١٠ .

لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ؛ ولهذا قال من قال من السلف **كسعيد بن جبير** ^(٢٢) : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها .

[الصدق يستلزم البر وهو جماع الدين]

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « عليكم بالصدق ! فإن الصدق يهdy إلى البر ، وإن البر يهdy إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب ؛ فإن الكذب يهdy إلى الفجور ، وإن الفجور يهdy إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب . ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » ^(٢٣) فأخبر النبي ﷺ أن الصدق أصل يستلزم البر ، وأن الكذب يستلزم الفجور . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ ^(٢٤) ولهذا كان بعض المشايخ إذا أمر بعض متبعيه بالتوبة وأحب أن لا ينفره ولا يتعب قلبه أمره بالصدق .

ولهذا كان يكثر في كلام مشايخ الدين وأئمتهم ذكر الصدق والإخلاص حتى يقولون : قل لمن لا يصدق : لا يتبعنى . ويقولون : الصدق سيف الله

(٢٢) سعيد بن جبير الأسدى ، بالولاء الكوفى ، أبو عبد الله : تابعى ، كان أعلمهم على الإطلاق ، وهو حبشى الأصل ، من موالى بنى والة بن الحارث من بنى الأسد .

(٢٣) أخرجه البخارى (٥٠٧/١٠/فتح) ومسلم (٢٦٠٧) وأبو داود (٤٩٨٩) والترمذى (١٩٧١) وأحمد (٣٨٤/١ ، ٤٣٢) والبيهقى (١٩٦/١٠) والبلغوى (٣٥٧٤) وابن حبان (٢٧٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً .

(٢٤) سورة الانفطار : الآية ١٣ .

في الأرض وما وضع على شيء إلا قطعه ، ويقول يوسف بن أسباط^(٢٥) وغيره :
ما صدق الله عبد إلا صنع له ، وأمثال هذا كثير .

والصدق والإخلاص هما في الحقيقة تحقيق الإيمان والإسلام ، فإن
المظهرين للإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق ، والفارق بين المؤمن والمنافق هو
الصدق فإن أساس النفاق الذي يبنى عليه هو الكذب ؛ ولهذا إذا ذكر الله حقيقة
الإيمان نعتة بالصدق كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُلْ :
لَمْ تَوَدِّعُوا ، وَلَكِنْ قُولُوا : أَسْلَمْنَا ﴾^(٢٦) إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ
آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ .
يَتَبَغَّوْنَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ ﴾ .

فأخبر أن الصادقين في دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب إيمانهم
ريية وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم ، وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ
على الأولين والآخرين كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ
مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ
قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكَمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ
الشَّاهِدِينَ ﴾^(٢٨) قال ابن عباس ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث
محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرننه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث
محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرننه .

(٢٥) يوسف بن أسباط الشيباني الزاهد الواعظ ، روى عن سفيان الثوري وغيره ،
وروى عنه المسيب بن واضح وعبد الله بن خبيق الأنطاكي توفي قبل المائتين بسنة . صفة
الصفوة (٢٦١/٤) .

(٢٦) سورة الحجرات : الآية ١٤ .

(٢٧) سورة الحشر : الآية ٨ .

(٢٨) سورة آل عمران : الآية ٨١ .

وقال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا منهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ (٢٩) فذكر [تعالى] (٣٠) أنه أنزل الكتاب والميزان ، وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط ؛ وليعلم الله من ينصره ورسله ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهdy ، وسيف ينصر ، وكفى بربك هاديا ونصيراً .

والكتاب والحديد وإن اشتركا في الإنزال فلا يمنع أن يكون أحدهما نزل من حيث لم ينزل الآخر . حيث نزل الكتاب من الله ، كما قال تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ (٣١) وقال تعالى : ﴿ الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ (٣٢) وقال تعالى : ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ (٣٣) والحديد أنزل من الجبال التى خلق فيها .

وكذلك وصف الصادقين فى دعوى البر الذى هو جماع الدين فى قوله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ﴾ (٣٤) إلى قوله : ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ وأما المنافقون فوصفهم سبحانه بالكذب فى آيات متعددة كقوله تعالى : ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ (٣٥) وقوله تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين

(٢٩) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٣٠) فى المخطوط : سبحانه .

(٣١) سورة الزمر : الآية ١ .

(٣٢) سورة هود : الآية ١ .

(٣٣) سورة النمل : الآية ٦ .

(٣٤) سورة البقرة : الآية ١٧٧ .

(٣٥) سورة البقرة : الآية ١٠ .

لكاذبون ﴿٣٦﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ، وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ﴿٣٧﴾ ونحو ذلك في القرآن كثير .

الصدق والتصديق في الأقوال والأعمال

ومما ينبغي أن يعرف أن الصدق والتصديق يكون في الأقوال وفي الأعمال ، كقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « كتب على ابن آدم حفظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة ، فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، والأذانان تزنيان وزناهما السمع ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشي ، والقلب يتمنى ويشتهي ، والفرج يصدق ذلك [أو] يكذبه » ﴿٣٨﴾ .

ويقال حملوا على العدو حملة صادقة إذا كانت إرادتهم للقتال ثابتة جازمة :
ويقال : فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك .

ولهذا يريدون بالصادق ، الصادق في إرادته وقصده وطلبه ، وهو الصادق في عمله ويريدون الصادق في خبره وكلامه .

والمنافق ضد المؤمن الصادق ، وهو الذي يكون كاذبا في خبره أو كاذبا في عمله كالمرأى في عمله .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ ﴾ ﴿٣٩﴾ الآيتين .

(٣٦) سورة المنافقون : الآية ١ .

(٣٧) سورة التوبة : الآية ٧٧ .

(٣٨) أخرجه مسلم (٢٠٤٧/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣٩) سورة النساء : الآية : ١٤٢ .

الإخلاص هو حقيقة الإسلام

وأما الإخلاص فهو حقيقة الإسلام إذ « الإسلام » هو الاستسلام لله لا لغيره كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ (٤٠) الآية .

فمن لم يستسلم لله فقد استكبر ، ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك ، وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام ، والإسلام ضد الشرك والكبر ويستعمل لازما ومتعديا كما قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤١) وقال تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٤٢) وأمثال ذلك في القرآن كثير .

ولهذا كان رأس الإسلام « شهادة أن لا إله إلا الله » ، وهي متضمنة عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه ، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً سواه ،

كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٤٣) وقال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (٤٤) .

وهذا الذي ذكرناه مما يبين أن أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال ، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها . كما قال النبي ﷺ

(٤٠) سورة الزمر : الآية ٢٩ .

(٤١) سورة البقرة : الآية ١٣١ .

(٤٢) سورة البقرة : الآية ١١٢ .

(٤٣) سورة آل عمران : الآية ٨٥ .

(٤٤) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده : « الإسلام علانية وإيمان في القلب » (٤٥) .

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ « الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلح صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسدت لها سائر الجسد ألا وهى القلب » (٤٦) ، وعن أنس بن مالك (٤٧)

(٤٥) أخرجه أحمد (١٣٥/٣) وابن أبي شيبة في مصنفه (١١/١١) وفي الإيمان (٦) والبزار [١٩/١ / كشف] من طرق عن علي بن مسعدة ثنا قتادة عن أنس به .

علي بن مسعدة : ضعيف . قال العقيلي في الضعفاء (٢٥٠/٣)
قال البخارى : فيه نظر .

والحديث ضعفه الألبانى في ضعيف الجامع برقم : ٢٢٨٠ .

(٤٦) أخرجه البخارى (١٢٦/١ ، ٢٩٠/٤ - فتح) ومسلم (١٥٩٩) وأبو داود (٣٣٢٩) والنسائى (٢٤١/٧ - ٢٤٢) والترمذى (١٢٠٥) وابن ماجه (٣٩٨٤) والدارمى (١٦١/٢) وابن الجارود (٥٥٥) وأحمد (٢٦٩/٤ ، ٢٧٠) والحميدى (٩١٨) والطحاوى في « المشكل » (٣٢٤/١) وأبو الشيخ في الأمثال (٢٦٠) وأبو نعيم في « الحلية » (٢٦٩/٤ - ٢٧٠) والبيهقى (١٦٤/٥) من حديث النعمان بن بشير وزيادة « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسدت » .
فهى للبخارى ومسلم ، وابن ماجه ، والدارمى ، والبيهقى ، وأحمد في الموضع الثانى دون سائرهم .

(٤٧) أخرجه البيهقى في الشعب وأبو نعيم في الطب مرفوعاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه كما في اللآلى المصنوعة (٩٧/٠٦/١) وأخرجه الطبرانى من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً كما في اللآلى المصنوعة (٩٥/١) وقال العراقى في تعليقه على الإحياء (٩٥/١) : لا يصح منها شيء .

- وضعفه الألبانى في صحيح الجامع رقم (٤١٤٢) وأخرجه البيهقى موقوفاً على أنس بن مالك رضي الله عنه كما في اللآلى المصنوعة (٩٦/١) : قال البيهقى في شعب الإيمان أنبأنا أبو الحسين بن

قال : القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث [الملك] خبثت جنوده (٤٨) .

فصل

الأعمال الباطنة

[من محبة وإخلاص وتوكل ورضا]

[ومتى يكون الحزن مباحاً أو منهي عنه]

وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك ، كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محموداً في حال أحد ، وإن ارتقى مقامه .

وأما « الحزن » فلم يأمر الله به ولا رسوله ، بل قد نهى عنه في مواضع وأن تعلق بأمر الدين .

كقوله تعالى : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (٤٩) .

= بشران أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار حدثنا أحمد بن منصور حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة فذكره وهذا سند حسن .
(٤٨) ومما تقدم يتبين لنا أن مما يؤكد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله في هذه المقدمة بعد أن تعرض : ١ - للظالم . ٢ - للمقتصد . ٣ - وللسابق بالخيرات .

وأن كل من المقتصد والسابق بالخيرات قد تكون له ذنوب ولكن تمحى عنه بتوبة فالله يحب التوابين ويحب المتطهرين ثم يتكلم على الظالم لنفسه فهو بقدر ولايته لله تكون بقدر إيمانه وتقواه ومن خلال ذلك يقول إن الإيمان يزيد وينقص وبعد ذلك يبين أثر البدعة وكيف يكون تأثيرها على التوبة وإن من مستلزماته البر وبه جماع الدين ويؤكد على أن قوام الدين لا يكون إلا بكتاب يهدي وسيف ينصر ثم يخرج بنتيجة إيجابية أن أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها .
(٤٩) سورة آل عمران : الآية ١٣٩ .

وقوله : ﴿ ولا تحزن عليهم ، ولا تك في ضيق مما يمكرون ﴾ (٥٠) .
 وقوله : ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ (٥١) وقوله :
 ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ (٥٢) وقوله : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا
 بما آتاكم ﴾ (٥٣) وأمثال ذلك كثير .

وذلك لأنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه ، وما لا فائدة فيه
 لا يأمر الله به ، نعم ! لا يأثم صاحبه إذا لم يقترب بحزنه محرم ، كما يحزن
 على المصائب ، كما قال النبي ﷺ : « إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا على
 حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا أو يرحم وأشار بيده إلى لسانه » (٥٤) وقال
 ﷺ : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب » (٥٥) ومنه قوله
 تعالى : ﴿ وتولى عنهم وقال : يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن
 فهو كظيم ﴾ (٥٦) .

وقد يقترب بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه فيكون محموداً من
 تلك الجهة لا من جهة الحزن ، كالحزن على مصيبة في دينه ، وعلى مصائب
 المسلمين عموماً فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير ، وبغض الشر ، وتوابع
 ذلك ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهد وجلب
 منفعة ودفع مضرة نهى عنه ، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه من جهة
 الحزن .

(٥٠) سورة النحل : الآية ١٢٧ .

(٥١) سورة التوبة : الآية ٤٠ .

(٥٢) سورة يونس : الآية ٦٥ .

(٥٣) سورة الحديد : الآية ٢٣ .

(٥٤) أخرجه البخارى (١٧٥/٣ - فتح) ومسلم (٦٣٦/٢ / عبد الباقي)

من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

(٥٥) أخرجه البخارى (١٧٣/٣ / فتح) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس رضى

الله عنه .

(٥٦) سورة يوسف : الآية ٨٦ .

وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به كان مذموماً عليه من تلك الجهة ، وإن كان محموداً من جهة أخرى .

وأما المحبة لله والتوكل عليه والإخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض ، وهى حسنة محبوبة فى حق كل أحد من النبیین والصديقين والشهداء والصالحين ومن قال إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط فى ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها : فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط ، وإنما يخرج عنها كافر أو منافق .

[حقيقة التوكل]

وقد تكلم بعضهم [فى ذلك] بكلام بينا غلطه فيه وإنه تقصير فى تحقيق هذه المقامات (بكلام مبسوط) وليس هذا موضعه .

ولكن هذه « المقامات » ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم ، فللخاصة خاصها ، وللعامة عامها .

مثال ذلك أن هؤلاء قالوا : « إن التوكل مناضلة عن النفس فى طلب القوت ، والخاص لا يناضل عن نفسه . وقالوا : المتوكل يطلب بتوكله أمراً من الأمور .

والعارف يشهد الأمور بفروعها منها فلا يطلب شيئاً » .

فيقال : أما الأول فإن التوكل أعم من التوكل فى مصالح الدنيا ، فإن المتوكل يتوكل على الله فى صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وإرادته وهذا أهم الأمور إليه ، ولهذا يناجى ربه فى كل صلاة بقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ (٥٧) كما فى قوله تعالى : ﴿ فاعبه وتوكل عليه ﴾ (٥٨) وقوله :

(٥٧) سورة الفاتحة : الآية ٥ .

(٥٨) سورة هود : الآية ١٢٣ .

﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾^(٥٩) وقوله : ﴿ قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾^(٦٠) .

فهو قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع ؛ لأن هذين يجمعان الدين كله .

ولهذا قال من قال من السلف : إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن ، وجمع علم القرآن في المفصل ، وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب ، وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

وهاتان الكلمتان هما الجامعتان اللتان للرب والعبد ، كما في الحديث الذي في صحيح مسلم عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله سبحانه قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل قال رسول الله ﷺ : يقول العبد : الحمد لله رب العالمين ، يقول الله حمدني عبدي ، يقول العبد : الرحمن الرحيم : يقول الله : أثني على عبدي ، يقول العبد : مالك يوم الدين ، يقول الله مجدني عبدي ، يقول العبد : إياك نعبد وإياك نستعين ، يقول الله فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل . يقول العبد : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين يقول الله : فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل »^(٦١) فالرب سبحانه له نصف الثناء والخير والعبد له نصف الدعاء والطلب وهاتان جامعتان ما للرب سبحانه ، وما للعبد فإياك نعبد للرب ، وإياك نستعين للعبد .

(٥٩) سورة هود : الآية ٨٨ ، والشورى الآية : ١٠ .

(٦٠) سورة الرعد : الآية ٣٠ .

(٦١) أخرجه مالك (٨٤/١) ومسلم (٣٩٦/١) وأبو داود (٨٢١) والنسائي (١٣٦/٢) والترمذي (٢٩٥٤) وأحمد (٢٤١/٢) والبيهقي (٣٧٥/٣٩/٢) والبخاري (٤٨/٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

[معنى العبادة] [من كمال الحب لله ونهايته وكمال الذل ونهايته]

[وفي] (٦٢) الصحيحين عن معاذ رضى الله عنه قال : كنت رديفا للنبي ﷺ على حمار فقال : « يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال : حقهم عليه أن لا يعذبهم » (٦٣) .

والعبادة : هى الغاية التى خلق الله لها العباد من جهة أمر الله ومحبه ورضاه كما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (٦٤) وبها أرسل الرسل وأنزل الكتب وهى اسم يجمع [كمال الحب لله ونهايته ، وكمال الذل لله ونهايته] ، فالحب الخلى عن ذل والذل الخلى عن حب لا يكون عبادة ، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين ، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله ، وهى وإن كانت منفعتها للعبد والله غنى عن العالمين فهى له من جهة محبه لها ورضاه بها .

ولهذا كان الله أشد فرحاً بتوبة العبد من الفاقد لراحلته عليها طعامه وشرابه فى أرض دوية ملهكة إذ نام آيساً منها ثم استيقظ فوجدها ، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته (٦٥) .

(٦٢) فى المخطوط : كما فى .

(٦٣) أخرجه البخارى (٥٨/٦ - فتح) ومسلم (٤٩/٣٠) والترمذى (٢٦٤٣) وأحمد (٢٢٨/٥) والطيالسى (٥٦٥) والبيهقى فى الأربعين الصغرى (٥) وابن حبان (٢٥٠/١) وابن مندة فى الإيمان (١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨) من طريق عمرو بن ميمون ، عن معاذ .

وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٦٤) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٦٥) أخرجه البخارى (١٠٢/١١ - فتح) ومسلم (٢١٠٣/٤ - عبد الباقي) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

وهذا يتعلق به أمور جلية قد بسطناها وشرحناها في غير هذا الموضع .

والتوكل والاستعانة للبعد ، لأنه هو الوسيلة والطريق الذى ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة ، فالاستعانة بالدعاء والمسئلة . وقد روى الطبرانى في كتاب الدعاء عن النبى ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : يا ابن آدم ! إنما هي أربع واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة بينى وبينك ، وواحدة بينك وبين خلقى . فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئاً ، وأما التى هى لك فعملك أجازيك به أحوج ما تكون إليه ، وأما التى بينى وبينك فمَنك الدعاء وعلى الإجابة ، وأما التى بينك وبين خلقى فأنت للناس ما تحب أن يأتوا إليك » (٦٦) .

وكون هذا [لله] وهذا للعبد هو باعتبار تعلق المحبة والرضا ابتداء ، فإن العبد ابتداء يحب ويريد ما يراه ملائماً له ، والله تعالى يحب ويرضى ما هو الغاية المقصودة فى رضاه ، ويحب الوسيلة تبعاً لذلك ، وإلا فكل مأمور به فمفئته عائدة على العبد ، وكل ذلك يحبه الله ويرضاه ، وعلى هذا فالذى ظن أن التوكل من المقامات العامة ظن أن التوكل لا يطلب به إلا حظوظ الدنيا ، وهو غلط بل التوكل فى الأمور الدينية أعظم .

وأيضاً [التوكل من الأمور] (٦٨) الدينية التى لا تتم الواجبات والمستحبات إلا بها والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه .

و « الزهد المشروع » هو ترك الرغبة فيما لا ينفع فى الدار الآخرة ، وهو فضول المباح التى لا يستعان بها على طاعة الله .

كما أن « الورع المشروع » هو ترك ما قد يضر فى الدار الآخرة ، وهو ترك المحرمات والشبهات التى لا يستلزم تركها ترك ما فعله أرجح منها ،

(٦٦) أخرجه أبو يعلى (٢٧٥٧) والطبرانى فى الدعاء (١٦) والبزار (١٩) من طريق صالح المرى قال سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعاً به وإسناده ضعيف من أجل صالح المرى فإنه ضعيف .

(٦٧) فى المخطوط : للرب .

(٦٨) فى المخطوط : فالأمور .

كالواجبات فأما ما ينفع في الدار الآخرة بنفسه أو يعين على ما ينفع في الدار الآخرة ، فالزهد فيه ليس من الدين بل صاحبه داخل في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٦٩) .

كما أن الاشتغال بفضول المباحات ، هو ضد الزهد المشروع ، فإن اشتغل بها عن فعل واجب أو فعل محرم كان عاصياً ، وإلا كان منقوصاً عن درجة المقربين إلى درجة المقتصدين .

و (أيضاً) فإن التوكل هو محبوب لله مرضى له مأمور به دائماً ، وما كان محبوباً لله مرضياً له مأموراً به دائماً لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين ، فهذه ثلاثة أجوبة عن قولهم : المتوكل يطلب حظوظه (٧٠) .

[القضاء والقدر]

وأما قولهم : [إن] الأمور قد فرغ منها ، فهذا نظير ما قاله بعضهم في الدعاء أنه لا حاجة إليه ، لأن المطلوب إن كان [مقدراً] فلا حاجة إليه ، وإن لم يكن مقدراً لم ينفع الدعاء ، وهذا القول من أفسد الأقوال شرعاً وعقلاً .

وكذلك قول من قال : التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة ولا يدفع به مضرة ، وإنما هو عبادة محضة . وأن حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض ، وهذا وإن كان قاله طائفة من المشائخ فهو غلط أيضاً .

وكذلك قول من قال : إن الدعاء إنما هو عبادة محضة .

(٦٩) سورة المائدة : الآية ٨٧ .

(٧٠) قد بين شيخ الإسلام حقيقة التوكل . ورد على من يقول بخلاف الصواب بثلاثة ردود قوية وبين المعنى المطلوب من العبادة وكيف أنها لا تكون إلا بكمال الحب لله ونهايته مع كمال الذل ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله .

فهذه الأقوال وما أشبهها يجمعها أصل واحد : وهو أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن تتوقف على أسباب مقدرة - أيضاً - تكون من العبد ؛ ولم يعلموا أن الله سبحانه يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التي جعلها معلقة بها من أفعال العباد ، وغير أفعالهم ، ولهذا كان طرد قولهم يوجب تعطيل الأعمال بالكلية .

وقد سئل النبي ﷺ عن هذا [الأصل] مرات فأجاب عنه .

كما أخرجه في الصحيحين عن عمران بن حصين قال : « قيل لرسول الله ﷺ : يارسول الله ! أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم . قالوا : ففيم العمل ؟ قال : كل ميسر لما خلق له »^(٧١) وفي الصحيحين^(٧٢) عن علي بن أبي طالب قال : « كنا في جنازة فيها رسول الله ﷺ فجلس ومعه مخضرة فجعل ينكت بالمخضرة^(٧٣) في الأرض ثم رفع رأسه وقال ما من نفس منقوسة إلا وقد كتب مكانها من النار أو الجنة ، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة . قال : فقال رجل من القوم يانبي الله ! أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فمن كان من أهل السعادة ليكونن إلى السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى الشقاوة قال أعملوا فكل ميسر لما خلق له . أما أهل السعادة فييسرون للسعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون للشقاوة ، ثم قال نبي الله ﷺ : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)^(٧٤) أخرجه الجماعة في الصحيح والسنن والمسانيد .

(٧١) أخرجه البخارى (٤٩١/١١ - فتح) ومسلم (٢٠٤١/٤) عبد الباقي (من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه .

(٧٢) أخرجه البخارى (٦٦٠٥/فتح) ومسلم (٢٦٤٧/عبد الباقي) من حديث علي رضى الله عنه .

(٧٣) قال ابن حجر فى الفتح (٤٩٦/١١) :

المخضرة : بكسر الميم وسكون المعجمة وفتح الصاد المهملة هى عصا أو قضيب يمسكه الرئيس ليتوكأ عليه ويدفع به عنه ويشير به لما يريد ، وسميت بذلك لأنها تحمل تحت الخصر غالباً للإتكاء عليها) وفى اللغة اختصر الرجل إذا أمسك المخضرة .
(٧٤) سورة الليل : الآية ٥ .

وروى الترمذى « أن النبى ﷺ سئل فقيل : يا رسول الله ! أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورقى نسترقى بها وتقى نتقمها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال هى من قدر الله » (٧٥) .

وقد جاء هذا المعنى عن النبى ﷺ فى عدة أحاديث .

فبين ﷺ أن تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشقى لا ينافى أن تكون سعادة هذا بالأعمال الصالحة ، وشقاوة هذا بالأعمال السيئة ؛ فإنه سبحانه يعلم الأمور على ما هى عليه ، وكذلك يكتبها ؛ فهو يعلم أن السعيد يسعد بالأعمال الصالحة ، والشقى يشقى بالأعمال السيئة ، فمن كان سعيداً يسر للأعمال الصالحة التى تقتضى السعادة ؛ ومن كان شقيماً يسر للأعمال السيئة التى تقتضى الشقاوة ؛ وكلاهما يسر لما خلق له ، وهو ما يصير إليه من مشيئة الله العامة الكونية التى ذكرها الله سبحانه فى كتابه فى قوله تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ (٧٦) .

[تقسيم الكلمات والأمر والإرادة والإذن والكتاب والحكم والقضاء والتحريم إلى كوفى وشرعى]

وأما ما خلقوا له من محبة الله ورضاه وهو إرادته الدينية التى أمروا بموجبها فذلك مذكور فى قوله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (٧٧) .

والله سبحانه قد بين فى كتابه فى كل واحدة : من « الكلمات » و « الأمر » و « الإرادة » و « الإذن » و « الكتاب » و « الحكم » و « القضاء »

(٧٥) أخرجه الترمذى (٢٠٦٥) وابن ماجه (٢٤٣٧) وأحمد (٤٢١/٣) من طريق سفيان بن عيينة عن الزهري عن ابن أبى خزيمة عن أبيه مرفوعاً . وضعفه الألبانى فى ضعيف سنن ابن ماجه رقم ٧٤٩ .

(٧٦) سورة هود : الآية ١١٨ .

(٧٧) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

و « التحريم » ونحو ذلك ما هو ديني موافق لمحبة الله ورضاه وأمره الشرعى ؛ وما هو كونى موافق لمشيئته الكونية .

مثال ذلك أنه قال فى « الأمر الدينى » : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى ﴾^(٧٨) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾^(٧٩) ونحو ذلك . وقال فى « الكونى » : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(٨٠) .

وكذلك قوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾^(٨١) على إحدى الأقوال فى هذه الآية .

وقال فى « الإرادة الدينية » : ﴿ يَرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ ﴾^(٨٢) ﴿ يَرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾^(٨٣) ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ﴿^(٨٤) .

وقال فى « الإرادة الكونية » : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾^(٨٥) وقال : ﴿ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾^(٨٦) .

(٧٨) سورة النحل : الآية ٩٠ .

(٧٩) سورة النساء : الآية ٥٨ .

(٨٠) سورة يس : الآية ٨٢ .

(٨١) سورة الإسراء : الآية ١٦ .

(٨٢) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٨٣) سورة النساء : الآية ٢٦ .

(٨٤) سورة المائدة : الآية ٦ .

(٨٥) سورة البقرة : الآية ٢٥٣ .

(٨٦) سورة الأنعام : الآية ١٢٥ .

وقال نوح عليه السلام : ﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ (٨٧) .

وقال تعالى في « الإذن الديني » : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ (٨٨) .

وقال تعالى في « الكوني » : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ (٨٩) .

وقال تعالى في « القضاء الديني » : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ (٩٠) أى أمر .

وقال تعالى في « الكوني » : ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ (٩١) .

وقال تعالى في « الحكم الديني » : ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم ، إن الله يحكم ما يريد ﴾ (٩٢) وقال تعالى : ﴿ ذلكم حكم الله يحكم بينكم ﴾ (٩٣) .

وقال تعالى في « الكوني » عن ابن يعقوب : ﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أئى أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ (٩٤) وقال تعالى : ﴿ قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ (٩٥) .

(٨٧) سورة هود : الآية ٣٤ .

(٨٨) سورة يس : الآية ٨٢ .

(٨٩) سورة الحشر : الآية ٥ .

(٩٠) سورة البقرة : الآية ٢٣ .

(٩١) سورة الإسراء : الآية ٢٣ .

(٩٢) سورة فصلت : الآية ١٢ .

(٩٣) سورة المائدة : الآية ١ .

(٩٤) سورة المتحنة : الآية ١٠ .

(٩٥) سورة يوسف : الآية ٨٠ .

وقال تعالى في « التحريم الدينى » : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ (٩٦) ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم ﴾ (٩٧) الآية . وقال تعالى في « التحريم الكونى » : ﴿ فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ﴾ (٩٨) .

وقال تعالى : ﴿ والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ (٩٩) وقال تعالى في « الكلمات الدينية » : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ (١٠٠) وقال تعالى في « الكونية » : ﴿ وامت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ (١٠١) ومنه قوله ﷺ المستفيض عنه من وجوه في الصحاح والسنن والمسانيد أنه كان يقول في استعاذته « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر » (١٠٢) ومن المعلوم أن هذا هو الكونى الذى لا يخرج منه شيء ، عن مشيئته وتكوينه ، وأما الكلمات الدينية فقد خالفها [الفجار] بمعصيته .

والمقصود هنا : أنه ﷺ بين أن العواقب التى خلق لها الناس من سعادة وشقاوة ييسرون لها بالأعمال التى يصيرون بها إلى ذلك ، كما أن سائر المخلوقات

(٩٦) سورة الأنبياء : الآية ٣ .

(٩٧) سورة المائدة : الآية ٣ .

(٩٨) سورة النساء : الآية ٢٣ .

(٩٩) سورة المائدة : الآية ٢٦ .

(١٠٠) سورة البقرة : الآية ١٢٤ .

(١٠١) سورة الأعراف : الآية ١٣٧ .

(١٠٢) أخرجه أحمد (٤١٩/٣) وأبو نعيم فى الدلائل (٦٠/١) والبيهقى فى الأسماء والصفات (٤١) من حديث عبد الرحمن بن خنبل قال العراقى (٣٣٢/١) فى تعليقه على الإحياء : إسناده أحمد جيد وأخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث خالد بن الوليد كما فى مجمع الزوائد (١٠/١٢٦ ، ١٢٧) قال الهيثمى : وفيه الحكم بن عبد الله الأيلي وهو متروك .

وأخرجه الطبرانى فى الصغير كما فى مجمع الزوائد (١٠/١٢٧ - ١٢٨) من حديث عبد الله بن مسعود . قال الهيثمى وفيه من لم أعرفه .

كذلك ؛ فهو سبحانه يخلق الولد وسائر الحيوان في الأرحام بما يقدره من اجتماع الأبوين على النكاح ، واجتماع المائتين في الرحم ، فلو قال الإنسان أنا أتوكل ولا أطأ زوجتي فإن كان قد قضى لي بولد [وجد] وإلا لم يوجد ولا حاجة إلى وطء ، كان أحق بخلاف ما إذا وطئ وعزل الماء فإن عزل الماء لا يمنع انعقاد الولد إذا شاء الله ، إذ قد [يسبق] الماء بغير اختياره .

ومن هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري . قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بنى المصطلق فأصبنا سبياً من العرب فاشتبهنا النساء واشتدت علينا العزبة وأحببنا العزل فسألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : ما عليكم ألا تفعلوا ، فإن الله قد كتب ما هو خالق إلى يوم القيامة » (١٠٣) وفي صحيح مسلم عن جابر : « أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال إن لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل فقال اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها » (١٠٤) .

وهذا مع أن الله سبحانه قادر على ما قد فعله من خلق الإنسان من غير أبوين كما خلق آدم ، ومن خلقه من أب فقط كما خلق حواء من ضلع آدم القصير ومن خلقه من أم فقط كما خلق المسيح بن مريم عليه السلام ، لكن خلق ذلك بأسباب أخرى غير معتادة .

وهذا الموضع وإن كان إنما يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع فقد وقع في كثير من [دقه] كثير من المشائخ المعظمين يسترسل أحدهم مع القدر غير محقق لما أمر به ونهى عنه ، ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل ، والجرى مع الحقيقة القدريّة ، ويحسب أن قول القائل ينبغى للعبد أن يكون مع الله كالميت بين يدي الغاسل يتضمن ترك العمل بالأمر والنهي حتى يترك ما أمر به ، ويفعل ما نهى عنه وحتى يضعف عنده النور والفرقان الذي يفرق به بين ما أمر الله به وأحبه ورضيه ، وبين ما نهى عنه وأبغضه وسخطه فيسوى بين ما فرق الله بينه .

(١٠٣) أخرجه البخاري (١٩٤/٢) (١٤٨/٥/فتح) (١٤٨/٩/فتح) ومسلم (١٤٣٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
(١٠٤) أخرجه مسلم (١٤٣٩) من حديث جابر رضي الله عنه .

كما قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ (١٠٥) وقال تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالجحيم ما لكم كيف تحكمون ﴾ (١٠٦) وقال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ؟ ﴾ (١٠٧) وقال تعالى : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ ﴾ (١٠٨) وقال تعالى : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ (١٠٩) وأمثال ذلك .

حتى يفضى الأمر بغلاتهم إلى عدم التمييز بين الأمر بالمأمور النبوى الإلهى الفرقانى الدينى الشرعى الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وبين ما يكون فى [الوجود] من الأحوال التى تجرى على أيدي الكفار والفجار ، فيشهدون وجه الجمع من جهة كون الجميع بقضاء الله وقدره وربوبيته وإرادته العامة ، وأنه داخل فى ملكه ، ولا يشهدون وجه الفرق الذى فرق الله به بين أوليائه وأعدائه ، والأبرار والفجار ، والمؤمنين والكافرين ، وأهل [الطاعة] (١١١) الذين أطاعوا أمره الدينى ، وأهل [المعصية] (١١٢) الذين عصوا هذا الأمر [الدينى] ويستشهدون فى ذلك بكلمات مجملة نقلت عن بعض الأشياخ ، أو ببعض غلطات بعضهم .

(١٠٥) سورة الجاثية : الآية ٢١ .

(١٠٦) سورة القلم : الآية ٣٥ .

(١٠٧) سورة ص : الآية ٢٨ .

(١٠٨) سورة الزمر : الآية ٩ .

(١٠٩) سورة فاطر : الآية ١٩ .

(١١٠) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط وليس موجوداً فى الطبعيتين .

(١١١) فى المخطوط : طاعته .

(١١٢) فى المخطوط : معصيته .

وهذا « أصل عظيم » من أعظم ما يجب الاعتناء به على أهل طريق الله السالكين سبيل الإرادة : إرادة الذين يريدون وجهه ؛ فإنه قد دخل بسبب إهمال ذلك على طوائف منهم من الكفر والفسوق والعصيان ما لا يعلمه إلا الله ، حتى يصيروا معاونين على البغى والعدوان للمسلطين في الأرض من أهل الظلم والعلو ، كالذين يتوجهون بقلوبهم في معاونة من يهوونه من أهل العلو في الأرض والفساد ظانين أنهم إذا كانت لهم أحوال أثروا بها في ذلك كانوا بذلك من أولياء الله - فإن القلوب لها من التأثير أعظم مما للأبدان ؛ لكن إن كانت صالحة كان تأثيرها صالحاً ، وإن كانت فاسدة كان تأثيرها فاسداً ، فالأحوال يكون تأثيرها محبوباً لله تارة ، ومكروها لله أخرى .

وقد تكلم الفقهاء على وجوب القود على من يقتل غيره في الباطن حيث يجب القود في ذلك - ويستشهدون ببواطنهم وقلوبهم الأمر الكوني ، ويعدون مجرد خرق العادة لأحدهم بكشف يكشف له أو بتأثير يوافق إرادته هو كرامة من الله له ، ولا يعلمون أنه في الحقيقة [إهانة] ^(١١٤) ، وأن الكرامة لزوم الاستقامة ، وأن الله لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحب ويرضاه ، وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه .

وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(١١٥) .

فإن كانوا موافقين له فيما أوجبه عليهم فهم من المقتصدين ، وإن كانوا موافقين فيما أوجبه وأحبه فهم من المقربين ، مع أن كل واجب محبوب وليس كل محبوب واجباً .

(١١٣) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط وليس موجوداً في الطبعتين .

(١١٤) في المخطوط : استدراج .

(١١٥) سورة يونس : الآية ٦٢ .

[خوارق العادات]

وأما ما يتلى به عبده من السراء بخرق العادة أو بغيرها ، أو بالضراء فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه بل قد يسعد بها قوم إذا أطاعوه في ذلك ، وقد يشقى بها قوم إذا عصوه في ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا ﴾ (١١٦) ولهذا كان الناس في هذه الأمور على « ثلاثة أقسام » :

(قسم) ترتفع درجاتهم بخرق العادة إذا استعملوها في [طاعة الله] .

وقوم يتعرضون بها لعذاب الله إذا استعملوها في معصية الله كبلعام (١١٧) وغيره .

وقوم تكون في حقهم بمنزلة المباحات .

[والقسم] الأول هم المؤمنون حقاً المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم الذي إنما كانت خوارقه لحجة يقيم بها دين الله ، أو لحاجة يستعين بها على طاعة الله . ولكثرة الغلط في هذا الأصل نهى رسول الله ﷺ عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذي ينفع العبد ، فروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن

(١١٦) سورة الفجر : الآية ١٥ .

(١١٧) بلعام : كان من علماء بني إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد بعثه نبي الله موسى إلى ملك مدين يدعوه إلى الله ، فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام [تفسير ابن كثير - ٥٠٧/٣ ط الشعب .

(١١٨) في المخطوط : فالقسم .

وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان» (١١٩) .

وفي سنن أبي داود : « أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ فقضى على أحدهما فقال المقضى عليه : حسبي الله ونعم الوكيل . فقال رسول الله ﷺ إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل» (١٢٠) « فأمر النبي ﷺ المؤمن أن يحرص على ما ينفعه وأن يستعين بالله ، وهذا مطابق لقوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ (١٢١) . وقوله تعالى : ﴿ فاعبدوه وتوكل عليه ﴾ (١٢٢) فإن الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته إذ النافع له هو طاعة الله ولا شيء أنفع له من ذلك ، وكل ما يستعان به على الطاعة هو طاعة وإن كان من جنس المباح .

قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لسعد : « إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا إزدادت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها في في امرأتك » (١٢٣) .

فأخبر النبي ﷺ أن الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكيس وهو التفريط فيما يؤمر بفعله ، فإن ذلك يناقض القدرة المقارنة للفعل . وإن كان لا يناقض القدرة المتقدمة التي هي مناط الأمر والنهي .

فإن الاستطاعة التي توجب الفعل تكون مقارنة له ولا تصلح إلا لمقدورها كما ذكرها الله تعالى في قوله : ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع ﴾ (١٢٤) وفي قوله :

(١١٩) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(١٢٠) أخرجه أبو داود (٣٦٢٧) من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم ١٧٥٩ .
(١٢١) سورة الفاتحة : الآية ٥ .
(١٢٢) سورة هود : الآية ٢٣ .
(١٢٣) أخرجه البخاري (١٢٩٥/٥٦ ، ٢٤٧٢/فتح) ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .
(١٢٤) سورة هود : الآية ٢٠ .

﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾^(١٢٥) . وأما الاستطاعة التي يتعلق بها الأمر والنهى فتلك قد يقترن بها الفعل وقد لا يقترن . كما في قوله تعالى : ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾^(١٢٦) وقول النبي ﷺ لعمران ابن حصين « صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب »^(١٢٧) .

فهذا الموضع قد انقسم [الناس فيه]^(١٢٨) إلى « أربعة أقسام » :

(١) قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهى والعبادة والطاعة شاهدين لإلهية الرب سبحانه الذى أمروا أن يعبدوه ، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة ، وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة ؛ فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمان الله [ولشعائره] يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له هى التى تقوى العبد وتيسر عليه الأمور .

ولهذا قال بعض السلف : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله .

صفته ﷺ فى التوراة

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو « أن رسول الله ﷺ صفته فى التوراة إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمين ، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يجزى بالسيئة

(١٢٥) سورة الكهف : الآية ١٠١ .

(١٢٦) سورة آل عمران : الآية ٩٧ .

(١٢٧) أخرجه البخارى (١١٧/فتح) وأبو داود (٩٥٢) والنسائى (١٦٦٠)

والترمذى (٣٧٢) وابن ماجه (١٢٢٣) وأحمد (٤٢٦/٤) والبيهقى (٣٠٤/٢)

والبغوى (١٠٩/٤) من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه .

(١٢٨) فى المخطوط : فيه بنو آدم .

السيئة ، ولكن يجزى بالسيئة الحسنة ويعفو ويغفر ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فأفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوباً غلفاً بأن يقولوا لا إله إلا الله» (١٢٩)

ولهذا روى أن حملة العرش إنما أطاقوا حمل العرش بقولهم لا حول ولا قوة إلا بالله . [وقد ثبت] في الصحيحين عن النبي ﷺ « إنها كنز من كنوز الجنة » (١٣٠) قال تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ (١٣١) وقال تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ (١٣٢) إلى قوله : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ وفي صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله : ﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ قالها إبراهيم الخليل حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم (١٣٣) .

(٢) و (قسم ثان) : يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم إليه ويستعينون به لكن على أهوائهم وأذواقهم ، غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبه ، وهذا حال كثير من المتفكرة والمتصوفة ، ولهذا كثيراً ما يعملون على الأحوال التى يتصرفون بها فى الوجود ، ولا يقصدون ما يرضى الرب ويحبه ، وكثيراً ما يغلطون فيظنون أن معصيته هى مرضاته فيعودون إلى تعطيل الأمر والنهى ويسمون هذا حقيقة ، ويظنون أن هذه الحقيقة القدريّة يجب الاسترسال

(١٢٩) لم يخرجہ مسلم . وأخرجه البخارى (٤٨٣٨) وفى الأدب المفرد (٢٤٦) والدارمى (١٦/١) وأحمد (١٧٤/٢) والبيهقى (٣٦٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

(١٣٠) أخرجه البخارى (٤٢٠٥ /فتح) ومسلم (٢٧٠٤ /عبد الباقي) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

(١٣١) سورة الطلاق : الآية ٣ .

(١٣٢) سورة آل عمران : الآية ١٧٣ .

(١٣٣) أخرجه البخارى (٤٥٦٣ /فتح) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ..

معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية التي هي تحوى مرضاة الرب ومحبه وأمره ونبيه ظاهراً وباطناً .

وهؤلاء كثيراً ما يسلبون أحوالهم ، وقد يعودون إلى نوع من المعاصي والفسوق ، بل كثير منهم يرتد عن الإسلام ، لأن العاقبة للتقوى ، ومن لم يقف عند أمر الله ونبيه فليس من المتقين ، فهم يقعون في بعض ما وقع المشركون فيه تارة في بدعة يظنونها شرعة ، وتارة في الاحتجاج بالقدر على الأمر ؛ والله تعالى لما ذكر ما ذم به المشركين في سورة الأنعام والأعراف ذكر ما ابتدعوه من الدين وجعلوه شرعة كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا . قُلْ : إِنْ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ (١٣٤) وقد ذمهم على أن حرموا ما لم يحرمه الله ، وأن شرعوا ما لم يشرعه الله ، وذكر احتجاجهم بالقدر في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ (١٣٥) ونظيرها في النحل ويس والزخرف وهؤلاء يكون فيهم شبه من هذا وهذا .

(٣) وأما (القسم الثالث) : وهو من أعرض عن عبادة الله واستعانت به فهؤلاء شر الأقسام .

(٤) و (القسم الرابع) : هو القسم المحمود [وهو حال] (١٣٦) الذين حققوا ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وقوله : ﴿ فاعبدوه وتوكل عليه ﴾ فاستعانوا به على طاعته ، وشهدوا أنه إلههم الذى لا يجوز أن يعبد إلا إياه [بطاعته] وطاعة رسوله ، وأنه ربهم الذى ﴿ ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع ﴾ (١٣٨) وأنه ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا

(١٣٤) سورة الأعراف : الآية ٢٨ .

(١٣٥) سورة الأنعام : الآية ١٤٨ .

(١٣٦) في المخطوط : وهم .

(١٣٧) سورة هود : الآية ١٢٣ .

(١٣٨) سورة الأنعام : الآية ٥١ .

مرسل له من بعده ﴿١٣٩﴾ وإن يمسكك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴿١٤٠﴾ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرداني برحمة هل هن ممسكات رحمته ﴿١٤١﴾ .

ولهذا قال طائفة من العلماء الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ، وإنما التوكل المأمور به ما [اجتمع] فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع .

فقد تبين أن من ظن التوكل من مقامات عامة أهل الطريق فقد غلط غلطاً شديداً ، وإن كان من أعيان المشائخ - كصاحب « علل المقامات » وهو من أجل المشائخ ، وأخذ ذلك عنه صاحب « محاسن المجالس » - وظهر ضعف حجة من قال ذلك لظنه أن المطلوب به حظ العامة كذلك ، وذلك بمنزلة من جعل الأعمال المأمور بها كذلك ، كمن اشتغل بالتوكل عن ما يجب عليه من الأسباب التي هي عبادة وطاعة مأمور بها ؛ فإن غلط هذا في ترك الأسباب المأمور بها التي هي داخلة في قوله تعالى : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ (١٤٢) كغلط الأول في ترك التوكل المأمور به الذي هو داخل في قوله تعالى : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ .

لكن يقال : من كان توكله على الله ودعاؤه له هو في حصول مباحات فهو من العامة ، وإن كان في حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة ، كما أن من دعاه وتوكل عليه في حصول محرمات فهو ظالم لنفسه ، ومن أعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله ، بل خارج عن حقيقة الإيمان ، فكيف يكون هذا المقام للخاصة ، قال الله تعالى : ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه

(١٣٩) سورة فاطر : الآية ٢ .

(١٤٠) سورة يونس : الآية ١٠٧ .

(١٤١) سورة الزمر : الآية ٣٨ .

(١٤٢) سورة هود : الآية ١٢٣ .

توكلوا. إن كنتم مسلمين ﴿١٤٣﴾ وقال تعالى : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾ ﴿١٤٤﴾ وقال تعالى : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ﴿١٤٥﴾ وقال تعالى : ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ﴾ إلى قوله : ﴿ قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ ﴿١٤٦﴾ .

وقد ذكر الله هذه الكلمات (حسبي الله) في جلب المنفعة تارة ، وفي دفع المضرة أخرى . (فالأولى) في قوله تعالى : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله ﴾ ﴿١٤٧﴾ الآية . و (الثانية) في قوله : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً . وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ﴿١٤٨﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره ﴾ ﴿١٤٩﴾ وقوله : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله ﴾ ﴿١٥٠﴾ يتضمن الأمر بالرضا والتوكل .

والرضا والتوكل يكتنفان المقدور ، فالتوكل قبل وقوعه . والرضا بعد وقوعه ؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الصلاة : « اللهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق أحييني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ،

(١٤٣) سورة يونس : الآية ٨٤ .

(١٤٤) سورة آل عمران : الآية ١٦٠ .

(١٤٥) سورة إبراهيم : الآية ١٢ .

(١٤٦) سورة الزمر : الآية ٣٨ .

(١٤٧) سورة التوبة : الآية ٥٩ .

(١٤٨) سورة آل عمران : الآية ١٧٣ .

(١٤٩) سورة الأنفال : الآية ٦٢ .

(١٥٠) سورة التوبة : الآية ٥٩ .

وأسألك قرة عين لا تنقطع ، اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ؛ وأسألك لذة النظر إلى وجهك ؛ وأسألك الشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين» (١٥١) رواه أحمد والنسائي من حديث عمار بن ياسر .

[عدم التعرض للبلاء]

وأما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة الرضا .
ولهذا كان طائفة من المشائخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء ؛ فإذا وقع انفسخت عزائمهم كما يقع نحو ذلك في الصبر وغيره كما قال تعالى : ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ (١٥٢) وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ (١٥٣) نزلت هذه الآية لما قالوا لو علمنا أى الأعمال أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله سبحانه وتعالى آية الجهاد فكرهه من كرهه .

ولهذا كره للمرء أن يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه مالا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك ، أو يطلب ولاية ، أو يقدم على بلد فيه طاعون .

(١٥١) أخرجه النسائي (٥٥/٣) وأحمد (٢٦٤/٤) والحاكم (٥٢٤/١) وابن أبى شيبه في المصنف (٢٦٥/١٠) والبيهقي في الأسماء والصفات (١٤٨) وابن حبان (٥٠٩/موارد) من حديث عمار بن ياسر رضى الله عنهما .

وقال الحاكم : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع : ١٣٠١ .

(١٥٢) سورة آل عمران : الآية ١٤٣ .

(١٥٣) سورة الصف : الآية ١٥٢ .

كما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر ؛ وقال : « إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل »^(١٥٤) وثبت عنه في الصحيحين أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة : « لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ؛ وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك »^(١٥٥) وثبت عنه في الصحيحين أنه قال في الطاعون : « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه »^(١٥٦) وثبت عنه في الصحيحين أنه قال : « لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »^(١٥٧) وأمثال ذلك مما يقتضى أن الإنسان لا ينبغي له أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء [ويحرم عليه أشياء] فيبخل بالوفاء ؛ كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهداً على أمور ، وغالب هؤلاء يتلون بنقض العهود .

[الصبر وأحكامه]

ويقتضى أن الإنسان إذا ابتلى فعليه أن يصبر ويثبت ولا ينكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات . ولا بد في جميع ذلك من الصبر ؛ ولهذا كان الصبر واجباً باتفاق المسلمين على أداء الواجبات ، وترك المحظورات .

(١٥٤) أخرجه البخارى (٦٦٠٨ ، ٦٢٩٢ /فتح) ومسلم (١٢٦١ /٣ /عبد الباقي) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .
(١٥٥) أخرجه البخارى (١٥٩ /٨ ، ١٨٤) ومسلم (١٦٥٢ /عبد الباقي) من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه .
(١٥٦) أخرجه البخارى (١٦٩ /٧) ومسلم (٢٢١٩ /عبد الباقي) من حديث عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه .
(١٥٧) أخرجه البخارى (٢٨٣٣ /٢٨١٨ ، ٢٩٦٦ /فتح) ومسلم (١٧٤٢ /عبد الباقي) من حديث عبد الله بن أبى أوفى .

ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها ، والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنه .

وقد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعاً ، وقرنه بالصلاة في قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ (١٥٨) ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ (١٥٩) وقوله : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ﴾ إلى قوله : ﴿ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ (١٦٠) ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ ﴿ فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك ﴾ (١٦١) الآية .

وجعل « الإمامة في الدين » موروثاً عن الصبر واليقين بقوله : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ (١٦٢) . فإن الدين كله علم بالحق وعمل به ، والعمل به لا بد فيه من اليقين والصبر (١٦٣) ، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر ، كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة ، ومعرفة خشية ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ؛ ومذاكرته تسبيح . به يعرف الله ويعبد ، وبه يمجّد الله ويوحد ، يرفع الله بالعلم أقواماً يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم ، وينتهون إلى رأيهم . فجعل البحث عن العلم من الجهاد ، ولا بد في الجهاد من الصبر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا

(١٥٨) سورة البقرة : الآية ٤٥ .

(١٥٩) سورة البقرة : الآية ١٥٣ .

(١٦٠) سورة هود : الآية ١١٥ .

(١٦١) سورة غافر : الآية ٥٥ .

(١٦٢) سورة السجدة : الآية ٢٤ .

(١٦٣) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط ليس موجوداً في الطبعيتين .

الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴿١٦٤﴾ وقال تعالى : ﴿ واذكر
عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار ﴾ ﴿١٦٥﴾ .

فالعلم النافع هو : أصل الهدى ، والعلم بالحق هو الرشاد ، وضد الأول
الضلال ، وضد الثاني الغي ، فالضلال العمل بغير علم ، والغى اتباع الهوى . قال
تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ ﴿١٦٦﴾ فلا ينال
الهدى إلا بالعلم ولا ينال الرشاد إلا بالصبر ؛ ولهذا قال على : ألا إن الصبر من
الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد - فإذا انقطع الرأس بان الجسد - ثم رفع صوته
فقال ألا لا إيمان لمن لا صبر له .

[الرضا وأحكامه]

وأما « الرضا » فقد تنازع العلماء والمشائخ من أصحاب الإمام أحمد
وغيرهم في الرضا بالقضاء : هل هو واجب أو مستحب ؟ على قولين : فعلى
الأول يكون من أعمال المقتصدين ، وعلى الثاني يكون من أعمال المقربين . قال
عمر بن عبد العزيز الرضا عزيز ولكن الصبر معول المؤمن . وقد روى عن النبي
ﷺ أنه قال لابن عباس : « إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ،
فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً » ﴿١٦٧﴾ .

(١٦٤) سورة العصر .

(١٦٥) سورة ص : الآية ٤٥ .

(١٦٦) سورة النجم : الآية ١ ، ٢ .

(١٦٧) أخرجه الحاكم (٥٤١/٣) من طريق عبد الله بن ميمون القداح عن شهاب

ابن خراش عن عبد الملك بن عمير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال الحاكم : إن الشيخين رضي
الله عنهما لم يخرجوا لشهاب بن خراش ولا للقداح في الصحيحين . قال الذهبي : لأن القداح
قال أبو حاتم متروك والآخر مختلف فيه وعبد الملك لم يسمع من ابن عباس فيما أرى .

وأخرجه أحمد (٣٠٧/١) من طريق حنش الصنعاني عن ابن عباس رضي الله عنهما

بلفظ (..... واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً) وصححه الشيخ أحمد شاكر
في تعليقه عن المسند برقم (٢٨٠٤) .

ولهذا لم يحىء في القرآن إلا مدح الراضين لا إيجاب ذلك وهذا في الرضا بما يفعله الرب بعبد من المصائب كالمرض والفقر والزلازل كما قال تعالى : ﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾ (١٦٨) وقال تعالى : ﴿ أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ؟ ﴾ (١٦٩) فالبأساء في الأموال ، والضراء في الأبدان والزلازل في القلوب .

وأما « الرضا بما أمر الله به » فأصله واجب ، وهو الإيمان كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً » (١٧٠) .

وهو من توابع المحبة كما سنذكره إن شاء الله تعالى قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (١٧١) وقال تعالى : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله ﴾ (١٧٢) الآية .

وقال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ (١٧٣) وقال تعالى : ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم

(١٦٨) سورة البقرة : الآية ١٣٧ .

(١٦٩) سورة البقرة : الآية ٢١٤ .

(١٧٠) أخرجه مسلم (٣٤) والترمذى (٢٦٢٣) وأحمد (٢٠٨/١) وابن مندة في الإيمان (١١٤ ، ١١٥) وأبو نعيم في الحلية (١٥٦/٩) والبيهقى في الأربعين الصغيرى (٤٩) من طريق يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم ، عن عامر بن سعد ، عن العباسي بن عبد المطلب رضى الله عنه به .

(١٧١) سورة النساء : الآية ٦٥ .

(١٧٢) سورة التوبة : الآية ٥٩ .

(١٧٣) سورة محمد : الآية ٢٨ .

كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴿١٧٤﴾ .

ومن « النوع الأول » ما رواه أحمد والترمذى وغيرهما عن سعد عن النبى ﷺ أنه قال : « من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم الله له . ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته لله وسخطه بما يقسم الله له » (١٧٥) .

وأما « الرضا بالمنهيات » من الكفر والفسوق والعصيان فأكثر العلماء يقولون لا يشرع الرضا بها ، كما لا تشرع محبتها .

فإن الله سبحانه لا يرضاها ولا يحبها ، وإن كان قد قدرها وقضاها كما قال سبحانه : ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ (١٧٦) وقال تعالى : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ (١٧٧) وقال تعالى : ﴿ وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ﴾ (١٧٨) ؛ بل يسخطها كما قال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ (١٧٩) .

وقالت طائفة ترضى من جهة كونها مضافة إلى الله خلقاً وتسخط من جهة كونها مضافة إلى العبد فعلاً وكسباً . وهذا [القول] لا ينافى الذى قبله بل هما يعودان إلى أصل واحد . وهو سبحانه [إنما] قدر الأشياء [وكونها] (١٨٠) لحكمة .

(١٧٤) سورة التوبة : الآية ٥٤ .

(١٧٥) أخرجه الترمذى (٢١٥١) وأحمد (١٦٨/١) والحاكم (٥١٨/١) من طريق محمد بن أبى حميد عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه عن جدة سعد بن أبى وقاص ضعفه الشيخ الألبانى فى الضعيفة (١٩٠٦) .

(١٧٦) سورة البقرة : الآية ٢٠٥ .

(١٧٧) سورة الزمر : الآية ٧ .

(١٧٨) سورة النساء : الآية ١٠٨ .

(١٧٩) سورة محمد : الآية ٢٨ .

(١٨٠) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط ليس موجوداً فى الطبعتين .

فهى باعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية ، وقد تكون فى نفسها مكروهة ومسخوطة . إذ الشئ الواحد يجتمع فيه وصفان يحب من أحدهما ويكره من الآخر ، كما فى الحديث الصحيح : « ما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » (١٨١) .

وأما من قال بالرضا بالقضاء الذى هو وصف الله [وفعله] لا بالمقضى الذى هو مفعوله ، فهو خروج منه عن مقصود الكلام . فإن الكلام ليس فى الرضا فيما يقوم بذات الرب تعالى من صفاته وأفعاله ، وإنما الكلام فى الرضا بمفعولاته والكلام فيما يتعلق بهذا قد بيناه فى غير هذا الموضع .

[من كمال الرضا الحمد]

والرضا وإن كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد ، حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضا ؛ ولهذا جاء فى الكتاب والسنة حمد الله على كل حال وذلك يتضمن الرضا بقضائه . وفى الحديث : « أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله فى السراء والضراء » (١٨٢) وروى عن النبى ﷺ « أنه كان إذا أتاه الأمر يسره قال : الحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات ، وإذا أتاه الأمر الذى يسوءه قال : الحمد لله على كل حال » (١٨٣) .

(١٨١) سبق تخريجه والكلام عليه رقم (٣) .

(١٨٢) أخرجه الحاكم (٥٠٢/١) والطبرانى فى الصغير (٢٨٨) وأبو نعيم فى الحلية (٦٩/٥) والبغوى فى « شرح السنة » (٥٠/٥١) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعاً ضعفه الألبانى فى الضعيفة (٦٣٢) .

وأخرجه ابن المبارك فى الزهد (٢٠٦) عن ابن جبير موقوفاً عليه .

قال الألبانى فى الضعيفة (٩٤/٢) : إسناده صحيح ولعل الموقوف هو الصواب .

(١٨٣) أخرجه ابن ماجة (٣٨٠٣) وابن السنى (٣٨٠) والحاكم (٤٩٩/١) من حديث عائشة رضى الله عنها . وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم ٤٦٤٠ .

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال : « إذا قبض ولد العبد يقول الله للملائكة : أقبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : أقبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة ، وسموه بيت الحمد » (١٨٤) .

ونبينا محمد ﷺ هو صاحب لواء الحمد ، وأمته هم الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء . والحمد على الضراء يوجهه مشهدان :

(أحدهما) : علم العبد بأن الله سبحانه مستوجب لذلك ، مستحق له لنفسه ؛ فإنه أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن كل شيء ، وهو العليم الحكيم . الخبير الرحيم .

و (الثاني) : علمه بأن اختيار الله لعبده المؤمن ، خير من اختياره لنفسه ، كما روى مسلم في صحيحه وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : « والذي نفسي بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » (١٨٥) .

فأخبر النبي ﷺ أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له .

(١٨٤) أخرجه الترمذی (١٠٢١) والبيهقي (٦٨/٤) والبخاری (٤٥٦/٤) وأحمد (٤١٥/٤) وابن حبان (٢٩٣٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .
وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٧٩٥ .

ولفظ أحمد [قال الله تعالى : يا ملك الموت قبضت ولد عبدي قبضت قرّة عينه وثمره فؤاده قال : نعم قال : فما قال : قال حمدك واسترجع قال ابنوا له ...] .
(١٨٥) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (١٨٦) .

وذكرهما في أربعة مواضع من كتابه .

فأما من لا يصبر على البلاء ، ولا يشكر على الرخاء ، فلا يلزم أن يكون القضاء خيراً له . ولهذا [أجيب] من أورد هذا على ما يقضى على المؤمن من المعاصي بجوابين .

(أحدهما) : أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد لا ما فعله العبد ، كما (في) قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (١٨٧) أى من سرء ﴿ وما أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ أى من ضراء . وكقوله تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١٨٨) أى بالسراء والضراء كما قال تعالى : ﴿ وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ (١٨٩) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً تَنْوَهُهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ (١٩٠) فالحسنات والسيئات يراد بها المسار والمضار ، ويراد بها الطاعات والمعاصي .

(والجواب الثاني) إن هذا في حق المؤمن الصبار الشكور . والذنوب تنقص الإيمان ، فإذا تاب العبد أحبه الله ، وقد ترتفع درجته بالتوبة . قال بعض السلف : كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، فمن قضى له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير : إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة . وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينه ويعجب بها ،

(١٨٦) سورة إبراهيم : الآية ٥ ، وفي سورة لقمان الآية ٣١ ، وفي سورة سبأ الآية : ١٩ ، وفي سورة الشورى الآية : ٣٣ .
(١٨٧) سورة النساء : الآية ٧٩ .
(١٨٨) سورة الأعراف : الآية ١٦٨ .
(١٨٩) سورة الأنبياء : الآية ٣٥ .
(١٩٠) سورة آل عمران : الآية ١٢٠ .

ويعمل السيئة فتكون نصب عينه فيستغفر الله ويتوب إليه منها وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « الأعمال بالخواتيم » (١٩١) .

[علامات التوبة النصوح]

والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب :

- (١) أن يتوب فيتوب الله عليه ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له .
- (٢) أو يستغفر فيغفر له . (٣) أو يعمل حسنات تمحوها فإن الحسنات يذهبن السيئات . (٤) أو يدعو له أخوانه المؤمنون ويستغفرون له حياً وميتاً . (٥) أو يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به . (٦) أو يشفع فيه نبيه محمد ﷺ .
- (٧) أو يتلى الله تعالى في الدنيا بمصائب تكفر عنه . (٨) أو يتلى في البرزخ بالصعقة فيكفر بها عنه . (٩) أو يتلى في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه . (١٠) أو يرحمه أرحم الراحمين .

فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه ، كما قال تعالى فيما يروى عنه رسوله ﷺ : « يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (١٩٢) .

[فإذا] كان المؤمن يعلم أن القضاء خير له إذا كان صبوراً شكوراً ، أو كان قد استخار الله وعلم أن من سعادة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما قسم الله له كان قد رضى بما هو خير له .

وفي الحديث الصحيح عن علي رضي الله عنه قال : « إن الله يقضى بالقضاء فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط » (١٩٣) .

(١٩١) أخرجه البخاري (٦٤٩٣، ٦٦٠٧/فتح) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

(١٩٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه .
(١٩٣) عزاه الهندي في كنز العمال (٨٥٣٩) إلى ابن عساكر موقوفاً على علي بلفظ (من رضى بقضاء الله جري عليه وكان له أجرٌ ومن لم يرض بقضاء الله جرى وحبط عمله) .

ففى هذا الحديث الرضا والاستخارة ، فالرضا بعد القضاء والاستخارة قبل القضاء ، وهذا أكمل من الضراء والصبر ، فلهذا ذكر فى ذاك الرضا ، وفى هذا الصبر .

ثم إذا كان القضاء مع الصبر خيراً له فكيف مع الرضا ، ولهذا جاء فى الحديث « المصاب من حرم الثواب » فى الأثر الذى رواه الشافعى فى مسنده : « أن النبى ﷺ لما مات سمعوا قائلاً يقول : يا آل بيت رسول الله ﷺ إن فى الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ، ودركاً من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا . فإن المصاب من حرم الثواب »^(١٩٤) ولهذا لم يؤمر بالحزن المنافى للرضا قط ، مع أن لا فائدة فيه ، فقد يكون فيه مضرة لكنه يعفى عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله .

لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب ، وذلك لا ينافى الرضا ؛ بخلاف البكاء عليه لفوات حظّه منه ، وبهذا يعرف معنى قول النبى ﷺ

(١٩٤) أخرجه الشافعى فى مسنده (ص ٣٦١) : وفيه القاسم بن عبد الله بن عمر : قال الحافظ فى التقريب : متروك ورماه أحمد بالكذب ، وفيه انقطاع .

وأخرجه ابن أبى الدنيا فى الهواتف (٨) من طريق محمد بن صالح القرشى حدثنى محمد ابن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن على بن الحسين عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وإسناده ضعيف من أجل محمد بن صالح القرشى ، ضعفه ابن الجوزى ، وقال الذهبى : روى عنه أسهل بن سهل حديثاً كذباً . ولم يوثقه سوى ابن حبان . انظر الميزان (٥٨٢/٣) وفى سنده محمد بن جعفر تكلم فيه ، وسكت عنه أبو حاتم : انظر الميزان (٥٠٠/٣) والجرح والتعديل (١٠٣/٥) .

وأخرجه ابن أبى الدنيا فى الهواتف (٩) من طريق خارجة بن مصعب عن زيد بن أسلم عن سويد بن غفلة عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وإسناده ضعيف جداً : فى سنده خارجة بن مصعب . أبو الحجاج السرخسى ، متروك ، وكان يدلّس عن الكذابين وأخرجه ابن أبى الدنيا فى الهواتف (١٠) من طريق صالح المروزى عن حازم المدينى إسناده منقطع وهو من أقسام الحديث الضعيف حيث أن صالحاً لم يدرك حازم بن حرمة . انظر الجرح والتعديل (٤١٥/٤ ، ٢٧٨/٣) .

لما بكى على الميت وقال : « إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء »^(١٩٥) فإن هذا ليس كبكاء من يبكي لحظه لا لرحمة الميت ؛ فإن الفضيل بن عياش لما مات ابنه على فضحك وقال : رأيت أن الله قد قضى فأحببت أن أَرْضَى بما قضى الله به : حاله حال حسن بالنسبة إلى أهل الجزع . وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله تعالى ، كحال النبي ﷺ فهذا أكمل . كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾^(١٩٦) فذكر سبحانه التواصي بالصبر والرحمة .

والناس « أربعة أقسام » : (١) منهم من يكون فيه صبر بقسوة (٢) ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع . (٣) ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع . (٤) والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس .

وقد ظن طائفة من المصنفين في هذا الباب أن الرضا عن الله من توابع المحبة له ، وهذا إنما يتوجه على « المأخذ الأول » وهو الرضا عنه لاستحقاقه ذلك بنفسه ، مع قطع العبد النظر عن حظه ، بخلاف « المأخذ الثاني » وهو الرضا لعلمه بأن المقضى خير له ، ثم إن المحبة متعلقة به والرضا متعلق بقضائه ، لكن قد يقال في تقرير ما قال المصنف ونحوه . إن المحبة لله نوعان : محبة له نفسه ، ومحبة له لما فيه من الإحسان ، وكذلك الحمد له نوعان : حمد له على ما يستحقه نفسه ، وحمد على إحسانه إلى عبده ، فالنوعان للرضا كالنوعين للمحبة .

وأما الرضا به وبدينه وبرسوله فذلك من حظ المحبة .

ولهذا ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان ، كما ذكر في المحبة وجود حلالة الإيمان . وهذان الحديثان الصحيحان هما أصل فيما يذكر من الوجد والذوق الإيماني الشرعي ؛ دون الضلالى البدعي . ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه

(١٩٥) أخرجه البخارى (١١٨/١٠) ومسلم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنه .

(١٩٦) سورة البلد : الآية ٢٧ .

قال : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً » (١٩٧)
وفى الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة
الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه
إلا الله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى
فى النار » (١٩٨) . وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول .

فصل [محبة الله ورسوله ﷺ]

محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل
قواعده ؛ بل هى أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين ، كما أن التصديق به
أصل كل قول من أقوال الإيمان ، والدين ، فإن كل حركة فى الوجود إنما تصدر
عن محبة : إما عن محبة محمودة ، أو عن محبة مذمومة ، كما قد بسطنا ذلك فى
« قاعدة المحبة » من القواعد الكبار .

فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة . وأصل
المحبة المحمودة هى محبة الله سبحانه وتعالى ، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند
الله لا يكون عملاً صالحاً ، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة
الله ؛ فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه ، كما ثبت فى الصحيح
عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن
عمل عملاً فأشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو كله للذى أشرك » (١٩٩) .

(١٩٧) سبق تخريجه رقم : ١٧٠ .

(١٩٨) أخرجه البخارى (١٠/١) ومسلم (٦٦/١) عبد الباقي (من حديث أنس

- رضى الله عنه - .

(١٩٩) أخرجه مسلم (٤٩٨٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وثبت في الصحيح حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار :
« القارئ المرائي ، والمجاهد المرائي والمتصدق المرائي » (٢٠٠) .

بل إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه ، وهو الذي بعث به
الأولين والآخرين من الرسل ، وأنزل به جميع الكتب ، واتفق عليه أئمة أهل
الإيمان ، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية ، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه
رحاه .

قال تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك
الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا له الدين الخالص ﴾ (٢٠١) والسورة
كلها عامتها في هذا المعنى . كقوله : ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له
الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ (٢٠٢) إلى قوله : ﴿ قل الله أعبد
مخلصاً له ديني ﴾ إلى قوله : ﴿ أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من
دونه ﴾ (٢٠٣) إلى قوله : ﴿ قل أفرايتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله
بضر هل هن كاشفات ضره ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء
قل أولوا كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً له ملك
السموات والأرض ثم إليه ترجعون ، وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين
لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ إلى قوله :
﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ إلى قوله : ﴿ بل الله فاعبد وكن
من الشاكرين ﴾ (٢٠٤) .

وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وإبليس أنه قال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين
إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ (٢٠٥) وقال تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم

(٢٠٠) أخرجه مسلم (١٩٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢٠١) أول الزمر ، وأول غافر وأول الجاثية ، والأحقاف .

(٢٠٢) سورة الزمر : الآية ١١ .

(٢٠٣) سورة الزمر : الآية ١٤ .

(٢٠٤) سورة الزمر : الآية ٤٣ .

(٢٠٥) سورة ص : الآية ٨٢ .

سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴿٢٠٦﴾ وقال : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ ﴿٢٠٧﴾ فبين أن سلطان الشيطان وإغواءه إنما هو لغير المخلصين : ولهذا قال في قصة يوسف : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ ﴿٢٠٨﴾ وأتباع الشيطان هم أصحاب النار ، كما قال تعالى : ﴿ لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين ﴾ ﴿٢٠٩﴾ .

وقد قال سبحانه : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ﴿٢١٠﴾ وهذه الآية في حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة ، فأخبر أنه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه وما دونه يغفر لمن يشاء . وأما قوله : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ ﴿٢١١﴾ فتلك في حق التائبين ؛ ولهذا عم وأطلق ، وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها .

وقد أخبر سبحانه أن الأولين والآخرين إنما أمروا بذلك في غير موضع كالسورة التي قرأها النبي ﷺ على أبيه لما أمره الله تعالى أن يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ ﴿٢١٢﴾ الآية .

-
- (٢٠٦) سورة الحجر : الآية ٤٢ .
(٢٠٧) سورة النحل : الآية ٩٩ .
(٢٠٨) سورة يوسف : الآية ٢٤ .
(٢٠٩) سورة ص : الآية ٨٥ .
(٢١٠) سورة النساء : الآية ٤٨ ، ١١٦ .
(٢١١) سورة الزمر : الآية ٥٣ .
(٢١٢) سورة البينة : الآية ٤ .

وهذا حقيقة قول لا إله إلا الله . وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٢١٣) وقال : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ (٢١٤) وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ (٢١٥) .

وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الأصل كما قال نوح عليه السلام : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ (٢١٦) وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ لاسيما أفضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا إبراهيم ومحمداً عليهما السلام ، فإن هذا الأصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما ، فإبراهيم هو الإمام الذي قال الله فيه : ﴿ إني جاعلك للناس إماما ﴾ (٢١٧) وفي ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل ، فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آل الذين بارك الله عليهم قال سبحانه : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرنى فإنه سيهدى وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ (٢١٨) .

فهذه الكلمة هي كلمة الإخلاص لله وهي البراءة من كل معبود إلا من الخالق الذي فطرنا كما قال صاحب يس : ﴿ وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون إني إذا لفي ضلال مبين ﴾ (٢١٩) . وقال تعالى في قصته بعد أن ذكر

(٢١٣) سورة الأنبياء : الآية ٢٥ .

(٢١٤) سورة الزخرف : الآية ٤٥ .

(٢١٥) سورة النحل : الآية ٣٥ .

(٢١٦) سورة الأعراف : الآية ١٢٤ .

(٢١٧) سورة البقرة : الآية ٢٦ .

(٢١٨) سورة الزخرف : الآية ٢٦ .

(٢١٩) سورة يس : الآية ٢٢ .

ما بين ضلال من اتخذ بعض الكواكب ربا يعبد من دون الله ، قال : ﴿ فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ إلى قوله : ﴿ ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ﴾ (٢٢٠) وقال إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿ أفأرى ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ، الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحييني ﴾ (٢٢١) وقال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ﴾ (٢٢٢) الآية .

ونبينا ﷺ هو الذي أقام الله به الدين الخالص لله دين التوحيد ، وقمع به المشركين من كان مشركاً في الأصل ، ومن الذين كفروا من أهل الكتب .

وقال ﷺ فيما رواه الإمام أحمد وغيره « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم » (٢٢٣) ، وقد تقدم بعض ما أنزل الله عليه من الآيات المتضمنة للتوحيد .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ والصفات صفا ﴾ إلى قوله : ﴿ إن إلهكم لواحد ﴾ إلى قوله : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون ﴾ إلى ما ذكره من قصص

(٢٢٠) سورة الأنعام : الآية ٧٨ .

(٢٢١) سورة الشعراء : الآية ٧٥ .

(٢٢٢) سورة الممتحنة : الآية ٤ .

(٢٢٣) أخرجه أحمد (٥٠/٢) وعبد بن حميد في المنتخب (٨٤٨) وابن أبي شيبة

(٣١٣/٥) من حديث عبد الله بن عمر . وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم

٢٨٣١ . وقد شرحه ابن رجب رحمه الله في رسالة مستقلة .

الأنبياء في التوحيد وإخلاص الدين لله ، إلى قوله : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴾ (٢٢٤) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ
مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ
وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴾ (٢٢٥) .

وفي الجملة فهذا الأصل في سورة الأنعام والأعراف والنور وآل طسم وآل
حم وآل المر وسورة المفصل وغير ذلك من السور المكية ومواضع من السور
المدينة كثير ظاهر ، فهو أصل الأصول وقاعدة الدين حتى في سورتي الإخلاص :
﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . وهاتان السورتان . كان
النبي ﷺ يقرأ بهما في صلاة التطوع كركعتي الطواف ، وسنة الفجر ، وهما
متضمنتان للتوحيد .

فأما ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ فهي متضمنة للتوحيد العملي الإرادي ، وهو
إخلاص الدين لله بالقصد والإرادة ، وهو الذي يتكلم به مشائخ التصوف غالباً .
وأما سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فمتضمنة للتوحيد القولي العملي كما ثبت
في الصحيحين عن عائشة « أن رجلاً كان يقرأ : قل هو الله أحد في صلاته .
فقال النبي ﷺ : سلوه لم يفعل ذلك ؟ فقال : لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن
أقرأ بها فقال أخبروه أن الله يحبها » (٢٢٦) .

ولهذا تضمنت هذه السورة من وصف الله سبحانه وتعالى الذي ينفي قول
أهل التعطيل وقول أهل التمثيل ، ما صارت به هي الأصل المعتمد في مسائل الذات
كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع .

(٢٢٤) سورة الصافات : الآية ١٥٩ و ١٦٠ .

(٢٢٥) سورة النساء : الآية ١٤٥ .

(٢٢٦) أخرجه البخاري (١٣/٣٤٨/فتح) ومسلم (٨١٣) من حديث عائشة

رضي الله عنها .

وذكرنا اعتماد الأئمة عليها مع ما تضمنته من تفسير الأحاد الصمد كما جاء تفسيره عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين ، وما دل على ذلك من الدلائل .

لكن المقصود هنا هو « التوحيد العملي » وهو إخلاص الدين لله وإن كان أحد النوعين مرتبطاً بالآخر . فلا يوجد أحد من أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة إلا وفيه نوع من الشرك العملي ، إذ أصل قولهم فيه شرك وتسوية بين الله وبين خلقه ، أو بينه وبين المعدومات كما يسوى المعطلة بينه وبين المعدومات في الصفات السلبية التي لا تستلزم مدحا ولا ثبوت كمال ، أو يسوون بينه وبين الناقص من الموجودات من صفات النقص ، وكما يسوون إذا أثبتوا هم ومن ضاهاهم من المثلة بينه وبين المخلوقات في حقائقها حتى قد يعبدونها فيعدلون برهم ويجعلون له أنداداً ويسوون المخلوقات برب العالمين .

واليهود كثيراً ما يعدلون الخالق بالمخلوق ويمثلونه به حتى يصفوا الله بالعجز والفقر والبخل ونحو ذلك من النقائص التي يجب تنزيهه عنها وهي من صفات خلقه .

والنصارى كثيراً ما يعدلون المخلوق بالخالق حتى يجعلوا في المخلوقات من نعوت الربوبية وصفات الإلهية ويجوزون له مالا يصلح إلا للخالق سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

والله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، وقد قال النبي ﷺ « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » (٢٢٧) وفي هذه الأمة من فيه شبه من هؤلاء وهؤلاء كما قال النبي ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب

(٢٢٧) أخرجه الترمذى (٢٩٥٤) من حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه مرفوعاً .
بلفظ (اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضلال) وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع برقم ٨٢٠٢ .

لدخلتموه ، قالوا : يارسول الله : اليهود والنصارى ، قال فمن» (٢٢٨) والحديث في الصحيحين .

فإذا كان أصل العمل الدينى هو إخلاص الدين لله ، وهو إرادة الله وحده فالشئ المراد لنفسه هو المحبوب لذاته ، وهذا كمال المحبة ، لكن أكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة كقوله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (٢٢٩) وقوله : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم ﴾ (٢٣٠) وأمثال هذا ، والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته ، وكمال الذل ونهايته ؛ فالمحسوب الذى لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبوداً ، والمعظم الذى لا يحب لا يكون معبوداً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ (٢٣١) فبين سبحانه أن المشركين بربهم الذى يتخذون من دون الله أنداداً ، وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله ، فالذين آمنوا أشد حبا لله منهم لله ولأوثانهم : لأن المؤمنين أعلم بالله ، والحب يتبع العلم ، ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبه لله وحده ، وأولئك جعلوا بعض حبه لغیره وأشركوا بينه وبين الأنداد فى الحب ، ومعلوم أن ذلك أكمل . قال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٢٣٢) .

واسم المحبة فيه إطلاق وعموم فإن المؤمن يحب الله ويحب رسله وأنبياءه وعباده المؤمنين ، وإن كان ذلك من محبة الله ، وإن كانت المحبة التى لله

(٢٢٨) أخرجه البخارى (٧٢٢٠) ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢٢٩) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٢٣٠) سورة البقرة : الآية ٢١ .

(٢٣١) سورة البقرة : الآية ١٦٥ .

(٢٣٢) سورة الزمر : الآية ٢٩ .

لا يستحقها غيره ، ولهذا جاءت محبة الله سبحانه وتعالى مذكورة بما يختص به سبحانه من العبادة والإنابة إليه والتبتل له ؛ ونحو ذلك . فكل هذه الأسماء تتضمن محبة الله سبحانه وتعالى .

ثم إنه كما بين أن محبته أصل الدين ، فقد بين أن كمال الدين بكما لها ونقصه بنقصها ، فإن النبي ﷺ قال : « رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله » (٢٣٣) . فأخبر أن الجهاد ذروة سنام العمل وهو أعلاه وأشرفه . وقد قال تعالى : ﴿ أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٣٤) ، والنصوص في فضائل الجهاد وأهله كثيرة .

وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد ، والجهاد دليل المحبة الكاملة . قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ (٣٣٥) الآية . وقال تعالى في صفة المحبين المحبوبين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ (٢٣٦) فوصف المحبوبين المحبين بأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، وأنهم يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم .

فإن المحبة مستلزمة للجهاد ، لأن المحب يحب ما يحب محبوبه ، ويغضض ما يغضض محبوبه ، ويؤالي من يؤاليه ويعادى من يعاديه ؛ ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه ، ويأمر بما يأمر به وينهى عما ينهى عنه فهو موافق له في ذلك . وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم ويغضب لغضبهم ، إذ هم إنما يرضون

(٢٣٣) أخرجه الترمذى (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣) وأحمد (٢٣١/٥) من حديث معاذ رضى الله عنه . وصححه الألبانى في صحيحى سنن الترمذى (٢١١٠) وابن ماجه (٣٢٠٩) .

(٢٣٤) سورة التوبة : الآية ١٩ .

(٢٣٥) سورة التوبة : الآية ٢٤ .

(٢٣٦) سورة المائدة : الآية ٥٤ .

لرضاه ويغضبون لما يغضب له ، كما قال النبي ﷺ لأبي بكر في طائفة فيهم صهيب وبلال : « لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك . فقال لهم : يا إخواني ! هل أغضبتكم قالوا لا ؛ يغفر الله لك يا أبا بكر (٢٣٧) ! » وكان قد مر بهم أبو سفيان بن حرب فقالوا: ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها ، فقال لهم أبو بكر : أتقولون هذا لسيد قريش ؟ وذكر أبو بكر ذلك للنبي ﷺ فقال له ما تقدم ؛ لأن أولئك إنما قالوا ذلك غضباً لله لكمال ما عندهم من الموالاة لله ورسوله ، والمعادة لأعداء الله ورسوله .

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح فيما يروى عن ربه : « لا يزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ؛ ويده التى يبطش بها ؛ ورجله التى يمشى بها ؛ فبى يسمع ؛ وبى يبصر ؛ وبى يبطش ؛ وبى يمشى ولئن سألتنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيزنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن : يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه » (٢٣٨) . فبين سبحانه أنه يتردد لأن التردد تعارض لإرادتين ، وهو سبحانه يحب ما يحب عبده ويكره ما يكره ، وهو يكره الموت فهو يكرهه ، كما قال وأنا أكره مساءته ؛ وهو سبحانه قد قضى بالموت فهو يريد أن يموت ، فسمى ذلك تردداً ثم بين أنه لا بد من وقوع ذلك .

[الرد على الحلولية]

وهذا اتفاق واتحاد في المحبوب المرضي بالمأمور به والمبغض المكروه المنهى عنه . وقد يقال له اتحاد نوعى وصفى ، وليس ذلك اتحاد الذاتين فإن ذلك محال ممتنع ، والقائل به كافر ، وهو قول النصارى والغالية من الرافضة والنساک كالحلاجية ونحوهم ، وهو « الاتحاد المقيد » فى شيء بعينه .

(٢٣٧) أخرجه مسلم (٢٥٠٤) من حديث عائذ بن عمرو رضى الله عنه .

(٢٣٨) سبق تخريجه والكلام عليه رقم (٣) .

وأما « الاتحاد المطلق » الذى هو قول أهل وحدة الوجود الذين يزعمون أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق ، فهذا تعطيل للصانع وجحود له ، وهو جامع لكل شرك ؛ فكما أن الاتحاد نوعان ، فكذلك الحلول نوعان : قوم يقولون : بالحلول المقيد فى بعض الأشخاص ، وقوم يقولون : بحلول فى كل شىء ، وهم الجهمية الذين يقولون : إن ذات الله فى كل مكان .

وقد يقع لبعض المصطلمين من أهل الفناء فى المحبة أن يغيب بمحبوبه عن نفسه وحبه ؛ ويغيب بمذكوره عن ذكره ؛ وبمعروفه عن معرفته ، وبموجوده عن وجوده ؛ حتى لا يشهد إلا محبوبة فيظن فى زوال تمييزه ونقص عقله وسكره أنه هو محبوبه . كما قيل : أن محبوباً وقع فى اليم فألقى الحب نفسه خلفه ؛ فقال أنا وقعت فأنت ما الذى أوقعك . فقال ، غبت بك عنى ، فظننت أنك أنى ، فلا ريب أن هذا خطأ وضلال .

لكن إن كان هذا لقوة المحبة والذكر من غير أن يحصل عن سبب محذور زال به عقله كان معذوراً فى زوال عقله ؛ فلا يكون مؤاخذاً بما يصدر منه من الكلام فى هذه الحال التى زال فيها عقله بغير سبب محذور ؛ كما قيل فى عقلاء المجانين : إنهم قوم آتاهم الله عقولاً وأحوالاً فسلب عقولهم وأبقى أحوالهم ، وأسقط ما فرض بما سلب .

وأما إذا كان السبب الذى به زوال العقل محظوراً لم يكن السكران معذوراً ؛ وإن كان لا يحكم بكفره فى أصح القولين ، كما لا يقع طلاقه فى أصح القولين ، وإن كان النزاع فى الحكم مشهوراً .

وقد بسطنا الكلام فى هذا ؛ وفيمن يسلم له حاله ومن لا يسلم فى « قاعدة » ذلك .

وبكل حال ؛ فالفناء الذى يفضى بصاحبه إلى مثل هذا حال ناقص ؛ وإن كان صاحبه غير مكلف ، ولهذا لم يرد مثل هذا عن الصحابة الذين هم أفضل هذه الأمة ولا عن نبينا محمد ﷺ وهو أفضل الرسل ، وإن كان لهؤلاء فى صبح

موسى نوع تعلق ، وإنما حدث زوال العقل عند الواردات الإلهية على بعض التابعين ومن بعدهم .

وإن كانت المحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوه ومكروهه وولايته وعداوته ، فمن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه ، ولا بد أن يحب ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَنِيَانٍ مَرْصُوصٌ ﴾ (٢٣٩) .

والحُب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم وعذل العاذل ، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة ، كما قد قال أكثر الشعراء في ذلك ، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود وهم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب الله ويرضاه من جهاد أعدائه ، فإن الملام على ذلك كثير . وأما الملام على فعل ما يكرهه الله أو ترك ما أحبه فهو لوم بحق ، وليس من المحمود الصبر على هذا الملام . بل الرجوع إلى الحق خير من التماذى في الباطل . وبهذا يحصل الفرق بين « الملامية » الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم في ذلك ، وبين « الملامية » الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصبرون على الملام في ذلك .

فصل

[الخوف والرجاء والرد على من يدعى أنه يعبد ليس شوقاً
إلى جنته ولا خوفاً من ناره]

وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني ، فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها ، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لافئما يبغضه . والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب . قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَتَغَوْنَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيْبَمُ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ (٢٤٠)

(٢٣٩) سورة الصف : الآية ٤ .

(٢٤٠) سورة الإسراء : الآية ٥٢ .

الآية . وقال : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ (٢٤١) .

و « رحمته » اسم جامع لكل خير . « وعذابه » اسم جامع لكل شر .
ودار الرحمة الخالصة هي الجنة ، ودار العذاب الخالص هي النار ، وأما الدنيا فدار امتزاج ، فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة فالجنة اسم جامع لكل نعيم وأعلاه النظر إلى وجه الله ، كما في صحيح مسلم عن ثابت (٢٤٢) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد . يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ؟ ألم يثقل موازيننا ويدخلنا الجنة وينجينا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه » (٢٤٣) وهو الزيادة .

ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال : ما عبدتك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك ؛ وإنما عبدتك شوقاً إلى رؤيتك ، فإن هذا القائل ظن هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشرب واللباس والتكاح والسماع ونحو ذلك مما فيه التمتع بال مخلوقات ، كما يوافقه على ذلك من ينكر رؤية الله من الجهيمة ، أو من يقربها ويزعم أنه لا تمتع بنفس رؤية الله ، كما يقوله طائفة من المتفقهة ، فهؤلاء متفقون على أن مسمى الجنة والآخرة لا يدخل فيه إلا التمتع بالمخلوقات ؛ ولهذا قال بعض من غلط من المشائخ لما سمع قوله : ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ (٢٤٤) قال فأين من يريد الله ، وقال آخر في قوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم

(٢٤١) سورة البقرة : الآية ٢١٨ .

(٢٤٢) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط ليس موجوداً في الطبعيتين .

(٢٤٣) أخرجه مسلم (١٨١) والترمذي (٢٥٥٥) وابن ماجه (١٨٧) وأحمد

(٣٣٢/٤ ، ٣٣٣) من حديث صهيب رضى الله عنه واللفظ لغير مسلم .

(٢٤٤) سورة آل عمران : الآية ١٥٢ .

الجنة ﴿٢٤٥﴾ قال إذا كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر إليه ، وكل هذا لظنهم أن الجنة لا يدخل فيها النظر .

و « التحقيق » أن الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم ، وأعلى ما فيها النظر إلى وجه الله ، وهو من النعيم الذي ينالونه في الجنة ؛ كما أخبرت به النصوص وكذلك أهل النار فإنهم محجوبون عن ربهم ، يدخلون النار ، مع أن قائل هذا القول إذا كان عارفاً بما يقول فإنما قصده أنك لو لم تخلق ناراً أو لو لم تخلق جنة لكان يجب أن تعبد ويجب التقرب إليك والنظر إليك ، ومقصوده بالجنة هنا ما يتمتع فيه المخلوق .

وأما عمل الحى بغير حب ولا إرادة أصلاً فهذا ممتنع وإن تخيله بعض الغالطين من النساك ، وظن أن كمال العبد أن لا تبقى له إرادة أصلاً فذاك لأنه تكلم في حال الفناء والفانى - الذى يشتغل بمحبوبه - له إرادة ومحبة ولكن لا يشعر بها ، فوجود المحبة شيء ، والإرادة شيء ، والشعور بها شيء آخر . فلما لم يشعروا بها ظنوا انتفاءها وهو غلط ؛ فالعبد لا يتصور أن يتحرك قط إلا عن حب وبغض وإرادة ، ولهذا قال النبي ﷺ « أصدق الأسماء حارث وهمام » ﴿٢٤٦﴾ فكل

(٢٤٥) سورة التوبة : الآية ١١١ .

(٢٤٦) قال الشيخ الألبانى في صحيحته (٣٤/٣) : رواه ابن وهب في الجامع (ص ٧) : أخبرني داود بن قيس عن عبد الوهاب ابن بُخْت مرفوعاً .

قلت : - أى الشيخ الألبانى - وهذا إسناد مرسل صحيح رجاله ثقات رجال مسلم . وقد أخرجه ابن وهب أيضاً من رواية عبد الله بن عامر اليحصى عن النبي ﷺ مرسلأ .

وإسناده صحيح أيضاً .

وللحديث شاهد موصول من طريق عقيل بن شبيب عن أبى وهب الجشمى - وكانت له صحبة - قال : قال رسول الله ﷺ فذكره في آخر حديث أوله « نشموا بأسماء الأنبياء » .

فالحديث بهذا الشاهد ثابت إن شاء الله تعالى انتهى كلام الشيخ الألبانى .

إنسان له حرث وهو العمل ، وله هم وهو أصل الإرادة ولكن تارة يقوم بالقلب من محبة الله ما يدعوه إلى طاعته ، ومن إجلاله والحياء منه ما ينهيه عن معصيته كما قال عمر رضي الله عنه نعم العبد صهيبي لو لم يخف الله لم يعصه أى هو لم يعصه ولو لم يخفه فكيف إذا خافه ، فإن إجلاله وإكرامه لله يمنعه من معصيته .

فالراجي الخائف إذا تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب باحتجاب الرب عنه والتنعيم بتجليه له معلوم أن هذا من توابع محبته له ، فالمحبة هى التى أوجبت محبة التجلى والخوف من الاحتجاب ، وإن تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب بمخلوق والتنعيم به فهذا إنما يطلب ذلك بعبادة الله المستلزمة لمحبهه ، ثم إذا وجد حلاوة محبة الله وجدها أحلى من كل محبة ؛ ولهذا يكون اشتغال أهل الجنة بذلك أعظم من كل شئ . كما فى الحديث « إن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس » (٢٤٧) وهو يبين غاية تنعمهم بذكر الله ومحبهه . فالخوف من التعذب بمخلوق والرجاء له يسوقه إلى محبة الله التى هى الأصل .

وهذا كله ينبنى على « أصل المحبة » فيقال قد نطق الكتاب والسنة بذكر محبة العباد المؤمنين ، كما فى قوله : ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ (٢٤٨) وقوله تعالى : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ (٢٤٩) وقوله تعالى : ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ﴾ (٢٥٠) وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى فى النار » (٢٥١)

-
- (٢٤٧) أخرجه مسلم (٢٨٣٥) وأبو داود (٤٧٤١) وأحمد (٣١٦/٣) والدارمى (٣٣٥/٢) وأبو نعيم فى « صفة الجنة » (٢٧٤) من حديث جابر رضى الله عنه .
- (٢٤٨) سورة البقرة : الآية ١٦٥ .
- (٢٤٩) سورة المائدة : الآية ٥٤ .
- (٢٥٠) سورة التوبة : الآية : ٢٤ .
- (٢٥١) سبق تخرجه رقم : ١٩٨ .

بل محبة رسول الله ﷺ وجبت لمحبة الله كما في قوله تعالى : ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٢٥٢) وكما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (٢٥٣) ، وفي صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب أنه قال : « والله يارسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي ، فقال : لا يا عمر ! حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال والله لأنت أحب إليّ من نفسي قال : الآن يا عمر » (٢٥٤) .

وكذلك محبة صحابته وقرابته ، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار » (٢٥٥) وقال : « لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر » (٢٥٦) وقال على رضى الله عنه : « إنه لعهد النبي الأُمى إليّ أنه لا يجبنى إلا مؤمن ، ولا يبغضنى إلا منافق » (٢٥٧) وفي السنن أنه قال للعباس : « والذي نفسي بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتي » يعنى بن هاشم . وقد روى حديث عن ابن عباس

(٢٥٢) سورة التوبة : الآية ٢٤ .

(٢٥٣) أخرجه البخارى (٥٨/١ - فتح) ومسلم (١٥) من حديث أنس رضى الله عنه بلفظ (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) وأخرجه البخارى (٥٨/١) والنسائى (١٥/٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ (فوالذى نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده) .
(٢٥٤) أخرجه البخارى (٦٦٣٢/فتح) من حديث عبد الله بن هشام رضى الله عنه .

(٢٥٥) أخرجه البخارى (١٧) ومسلم (٨٥) من حديث أنس رضى الله عنه .
(٢٥٦) أخرجه مسلم (٧٦) وأحمد (٤١٩/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وأخرجه مسلم (٧٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .
(٢٥٧) أخرجه مسلم (٦٤/٢) والنسائى (١١٦/١١٥/٨) من حديث على رضى الله عنه .

مرفوعاً أنه قال : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي لأجلى » (٢٥٨) .

وأما محبة الرب سبحانه لعبده فقال تعالى : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ (٢٥٩) قال تعالى : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ (٢٦٠) وقال تعالى : ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ (٢٦١) ﴿ وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ (٢٦٢) ﴿ فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ (٢٦٣) ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾ (٢٦٤) ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ (٢٦٥) ﴿ بل من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾ (٢٦٦) .

وأما الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة ، وكذلك حبه لأهلها وهم المؤمنون أولياء الله المتقون .

وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة [الحديث] (٢٦٧) ، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وجميع مشايخ الدين المتبعون ، وأئمة التصوف أن الله [سبحانه] محبوب لذاته محبة حقيقية ؛ بل هي أكمل

(٢٥٨) أخرجه الترمذى (٣٧٨٩) والحاكم (١٤٩/٣) وأبو نعيم في الحلية (٢١١/٣) والخطيب في تاريخه (١٦٠/٤) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما - وضعفه الشيخ الألبانى في ضعيف الجامع برقم ١٧٦ .

(٢٥٩) سورة النساء : الآية ١٢٥ .

(٢٦٠) سورة المائدة : الآية ٥٤ .

(٢٦١) سورة البقرة : الآية ١٩٥ .

(٢٦٢) سورة الحجرات : الآية ٩ .

(٣٦٣) سورة التوبة : الآية ٤ .

(٢٦٤) سورة التوبة : الآية ٧ .

(٢٦٥) سورة الصف : الآية ٤ .

(٢٦٦) سورة آل عمران : الآية ٧٦ .

(٢٦٧) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط وليس في الطبعتين .

محبة ، فإنها كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (٢٦٨) وكذلك هو سبحانه يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية .

وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الطرفين ، زعما منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب ، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة ، وكان أول من ابتدع هذا في الإسلام هم الجعد بن درهم (٢٦٩) في أوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق والمشرق بواسط . خطب الناس يوم الأضحى فقال : أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ثم نزل فذبحه وكان قد أخذ هذا المذهب عنه الجهم بن صفوان (٢٧٠) فأظهره وناظر عليه ، وإليه أضيف قول الجهمية فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان بها ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد وظهر قولهم أثناء خلافة المأمون ، حتى امتحن أئمة الإسلام ودعوا إلى الموافقة لهم على ذلك .

وأصل قولهم هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ومبتدعة أهل الكتاب الذين يزعمون أن الرب ليس له صفة ثبوتية أصلا ، وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهم يعبدون الكواكب ويننون الهياكل

(٢٦٨) سورة البقرة الآية : ١٦٥ .

(٢٦٩) الجعد بن درهم : من الموالى مبتدع له أخبار في الزندقة سكن الجزيرة الفراتية ، وأخذ عنه مروان بن محمد لما ولي الجزيرة في أيام هشام بن عبد الملك فنسب إليه ، قال ابن الأثير : « كان مروان يلقب بالجعدى لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقدر » .

وقال الذهبي « عداؤه في التابعين مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر .

(الأعلام / للزركلي ٢/ ١٢٠)

(٢٧٠) الجهم بن صفوان : أبو محرز جهم صفوان السمرقندي رأس الجهمية ، قال الذهبي : الضال المبتدع . الملك في زمان صغار التابعين وقد زرع شراً عظيماً
(الأعلام/للزركلي ٢/ ١٤١)

للعقول النجوم وغيرها ، وهم ينكرون في الحقيقة أن يكون إبراهيم خليلاً ،
وموسى كليماً ، [لأن] الخلّة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب كما قيل :

قد تخللت ميسلك الروح منى وبذا سمى الخليل خليلاً
ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيح عن أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه قال :
« لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لأتخذ أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم
خليل الله » (٢٧١) - يعنى نفسه - وفي رواية : « إني أبرأ إلى كل خليل من خلته ،
ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً » (٢٧٢) وفي
رواية : « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » (٢٧٣) ، فبين ﷺ أنه
لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلاً وأنه لو أمكن ذلك لكان أحق الناس بها
أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

مع أنه ﷺ قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصاً كما قال لمعاذ : « والله إني
لأحبك » (٢٧٤) وكذلك قوله للأَنْصار . وكان زيد بن حارثة حب رسول الله
ﷺ : وكذلك ابنه أسامة حبه ، وأمثال ذلك ، وقال له عمرو بن العاص : « أى
الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة . قال فمن الرجال . قل أبوها » (٢٧٥) .
وقال لفاطمة ابنته رضى الله عنها « ألا تحبين ما أحب ؟ قالت : بلى ! فأحبى

(٢٧١) أخرجه البخارى (٣٥٦٤) ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبى سعيد الخدرى
رضى الله عنه بلفظ (.... إن أمن الناس على فى ماله وصحبته أبو بكر ولو كنت متخذاً
خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام . لا تبقيين فى المسجد خوفاً ،
إلا خوفاً أبى بكر) .

(٢٧٢) أخرجه مسلم (١٨٥٦/٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضى
الله عنه .

(٢٧٣) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بن عبد الله البجلي رضى الله عنه .
(٢٧٤) أخرجه أبو داود (١٥٢٢) والنسائى (٥٣/٣) وأحمد (٢٤٥/٥) وابن
حبان (٢٣٤/٣) وإحسان (٢٧٣/١) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه .
وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع برقم ٧٩٦٩ .

(٢٧٥) أخرجه البخارى (١٨/٧) ومسلم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص
رضى الله عنه .

عائشة « (٢٧٦) . وقال للحسن : « اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه » (٢٧٦) وأمثال هذا كثير .

فوصف نفسه بمحبة أشخاص وقال : « إني أبرأ إلى كل خليل من خلته ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً » (٢٧٨) فعلم أن الخلّة أخص من مطلق المحبة بحيث هي من كمالها وتخللها الحب حتى يكون المحبوب بها محبوباً لذاته لا لشيء آخر . إذ المحبوب لشيء غيره هو مؤخر في الحب عن ذلك الغير ، ومن كمالها لا تقبل الشركة والمزاحمة لتخللها الحب ففيها كمال التوحيد وكمال الحب .

فالخلّة تنافي المزاحمة ، وتقدم الغير بحيث يكون المحبوب محبوباً لذاته محبة لا يزاحمه فيها غيره ، وهذه محبة لا تصلح إلا لله ، فلا يجوز أن يشركه غيره فما يستحقه من المحبة ، وهو محبوب لذاته وكل ما يحب غيره - إذا كان محبوباً بحق - فإنما يجب لأجله ، وكل ما أحب لغيره فمحبته باطلة ، فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله تعالى . وإذا كانت الخلّة كذلك فمن المعلوم أن من أنكر أن يكون الله محبوباً لذاته ينكر محالته . وكذلك أيضاً إن أنكر محبته لأحد من عباده فهو ينكر أن يتخذ خليلاً بحيث يحب الرب ويحبه العبد على أكمل ما يصلح للعباد .

وكذلك تكليمه لموسى أنكره لإنكارهم أن تقوم به صفة من الصفات أو فعل من الأفعال ، فكما ينكرون أن يتصف بحياة أو قدرة أو علم أو أن يستوى أو أن يجيء فكذلك ينكرون أن يتكلم أو يكلم ، فهذا حقيقة قولهم ، ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ﴾ (٢٧٩) .

(٢٧٦) أخرجه البخارى (٢٠٥/٥ - فتح) ومسلم (٢٤٤٢) مطولاً من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢٧٧) أخرجه البخارى (٥٨٨٤) ومسلم (١٨٨٣/١٨٨٢/٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢٧٨) تقدم تخريجه برقم ٢٧١ .

(٢٧٩) سورة البقرة : الآية ١١٨ .

لكن لما كان الإسلام ظاهراً والقرآن متلوا لا يمكن جرده لمن أظهر الإسلام ، أخذوا يلحدون في أسماء الله ويحرفون الكلم عن مواضعه فتأولوا محبة العباد له بمجرد محبتهم لطاعته أو التقرب إليه ، وهذا جهل عظيم ، فإن محبة المتقرب إلى المتقرب إليه تابع لمحبهه وفرع عليه ، فمن لا يحب الشيء لا يمكن أن يحب التقرب إليه ، إذ التقرب وسيلة ، ومحبة الوسيلة تبع لمحبة المقصود ، فيمتنع أن تكون الوسيلة إلى الشيء المحبوب هي المحبوب دون الشيء المقصود بالوسيلة .

وكذلك « العباداة والطاعة » إذا قيل في المطاع المعبود : أن هذا يجب طاعته وعبادته ، فإن محبته ذلك تبع لمحبهه ، وإلا فمن لا يحب لا يجب طاعته وعبادته ، ومن كان لا يعمل لغيره إلا لعوض يناله منه أو لدفع عقوبة فإنه يكون معاوضاً له أو مفتدياً منه لا يكون محباً له . ولا يقال إن هذا يحبه ويفسر ذلك بمحبة طاعته وعبادته ، فإن محبة المقصود وإن استلزمت محبة الوسيلة أو غير محبة الوسيلة ، فإن ذلك يقتضى أن يعبر بلفظين محبة العوض والسلامة عن محبة العمل . أما محبة الله فلا تعلق لها بمجرد محبة العوض ، ألا ترى أن من استأجر أجيراً بعوض لا يقال إن الأجير يحبه بمجرد ذلك ، بل قد يستأجر الرجل من لا يحبه بحال بل من ييغضه ، وكذلك من افتدى نفسه بعمل من عذاب معذب لا يقال إنه يحبه بل يكون مبغضاً له . فعلم أن ما وصف الله به عباده المؤمنين من أنهم يحبونه يمتنع أن لا يكون معناه إلا مجرد محبة العمل الذى ينالون به بعض الأغراض المخلوقة من غير أن يكون ربهم محبوباً أصلاً .

وأيضاً فلفظ « العباداة » متضمن للمحبة مع الذل كما تقدم ، ولهذا (كانت محبة القلب) (٢٨٠) للبشر على طبقات (٢٨١) .

أحدها : « العلاقة » وهو تعلق القلب بالمحبوب . ثم « الصبابة » وهو انصباب القلب إليه . ثم « الغرام » وهو الحب اللازم . ثم « العشق » وآخر

(٢٨٠) فى المخطوط : كان الحب للبشر .

(٢٨١) انظر تفصيل ذلك فى كتاب « روضة المحبين ، ونزهة المشتاقين » للحافظ ابن

قيم الجوزية بتهديب سمير حلى - ط . دار الصحابة للتراث .

المراتب هو « التيم » وهو التعبد للمحبوب ، والمتيم المعبود ، وتيم الله عبد الله فإن المحب يبقى [قلبه] ^(٢٨٢) ذاكراً معبداً مذكلاً لمحبوبه .

و (أيضاً) فاسم الإناة إليه يقتضى المحبة أيضاً ، وما أشبه ذلك من الأسماء كما تقدم .

و (أيضاً) فلو كان هذا الذى قالوه حقاً [من كون] ^(٢٨٣) ذلك مجازاً لما فيه من الحذف والإضمار ؛ فالجواز لا يطلق إلا بقرينة تبين المراد .

ومعلوم أن ليس فى كتاب الله وسنة رسوله ما ينفى أن يكون الله محبوباً ، وأن لا يكون المحبوب إلا الأعمال لا فى الدلالة المتصلة ولا المنفصلة بل ولا فى العقل أيضاً و (أيضاً) فمن علامات المجاز صحة إطلاق نفيه فيجب أن يصح إطلاق القول بأن الله لا يحب ولا يحب ، كما أطلق إمامهم الجعد بن درهم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، ومعلوم أن هذا ممتنع بإجماع المسلمين ، فعلم دلالة الإجماع على أن هذا ليس مجازاً ، بل هى حقيقة .

و (أيضاً) فقد فرق بين محبته ومحبة العمل له فى قوله تعالى : ﴿ أَحِبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ﴾ ^(٢٨٤) كما فرق بين محبته ومحبة رسوله فى قوله تعالى : ﴿ أَحِبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فلو كان المراد بمحبته ليس إلا محبة العمل لكان هذا تكريراً ، [أو] من باب عطف الخاص على العام ، وكلاهما على خلاف ظاهر الكلام الذى لا يجوز المصير إليه إلا بدلالة تبين المراد .

وكما أن محبته لا يجوز أن تفسر بمجرد محبة رسوله ، فكذلك لا يجوز تفسيرها بمجرد محبة العمل له ، وإن كانت محبته تستلزم محبة رسوله ومحبة العمل له .

(٢٨٢) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط ليس موجوداً فى الطبعيتين .

(٢٨٣) فى المخطوط : لكان .

(٢٨٤) سورة التوبة : الآية ٢٤ .

و (أيضاً) فالتعبير بمحبة الشيء عن مجرد محبة طاعته لا عن محبة نفسه أمر لا يعرف في اللغة لا حقيقة ولا مجازاً ؛ فحمل الكلام عليه تحريف محض أيضاً . وقد قررنا في مواضع من القواعد الكبار أنه لا يجوز أن يكون غير الله محبوباً مراداً لذاته كما لا يجوز أن يكون غير الله موجوداً بذاته ، بل لا رب إلا الله ولا إله إلا هو المعبود الذى يستحق أن يحب لذاته ويعظم لذاته ، كمال المحبة والتعظيم .

(وكل مولود يولد على الفطرة)^(٢٨٥) فإنه سبحانه فطر القلوب على أنه ليس في محبوباتها ومراداتها ما تطمئن إليه وتنتهى إليه إلا الله وحده ، وإن كل ما أحبه المحبوب من مطعوم وملبوس ومنظور ومسموع وملموس يجد من نفسه أن قلبه يطلب شيئاً سواه ، ويحب أمراً غيره يتأله ويصمد إليه ويطمئن إليه ويرى ما يشبهه من هذه الأجناس ، ولهذا قال الله تعالى في كتابه : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾^(٢٨٦) وفي الحديث الصحيح عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ عن الله تعالى أنه قال : ﴿ إني خلقت عبادى حنفاء فاجتالهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا ﴾^(٢٨٧) كما في الصحيحين عن أبى هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء »^(٢٨٨) ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾^(٢٨٩) .

و (أيضاً) فكل ما فطرت القلوب على محبته من نعوت الكمال فالله هو المستحق له على الكمال ، وكل ما في غيره من محبوب فهو منه سبحانه وتعالى فهو

(٢٨٥) أخرجه البخارى (١٢٥/٢) واللفظ له ، ومسلم (٢٠٤٧/٤) من طريق أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢٨٦) سورة الرعد : الآية ٢٨ .

(٢٨٧) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشع رضى الله عنه .

(٢٨٨) تقدم تخريجه برقم (٢٨٤) .

(٢٨٩) سورة الروم : الآية ٣٠ .

المستحق لأن يحب على الحقيقة والكمال . وإنكار محبة العبد لربه هو في الحقيقة إنكار لكونه إلهاً معبوداً ، كما أن إنكار محبته لعبده يستلزم إنكار مشيئته وهو يستلزم إنكار كونه رباً خالقاً فصار إنكارها مستلزماً لإنكار كونه رب العالمين ، ولكونه إله العالمين . وهذا هو قول أهل التعطيل والوجود .

ولهذا اتفقت الأمتان قبلنا على ما عندهم من مآثور وحكم عن موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه إن أعظم الوصايا أن تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك وهذا هو حقيقة الحنيفية ملة إبراهيم التي هي أصل شريعة التوراة والإنجيل والقرآن ، وإنكار ذلك هو مأخوذ عن المشركين والصابئين أعداء إبراهيم الخليل ومن وافقهم على ذلك من متفلسف ومتكلم ومتفقه ومبتدع أخذه عن هؤلاء ؛ وظهر ذلك في القرامطة الباطنية من الإسماعيلية ، ولهذا قال الخليل إمام الحنفاء صلوات الله وسلامه عليه ﴿ أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾ (٢٩٠) وقال أيضا : ﴿ لا أحب الأفلين ﴾ (٢٩١) وقال تعالى : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ (٢٩٢) وهو السليم من الشرك .

وأما قولهم : « إنه لا مناسبة بين المحدث والقديم توجب محبته له وتمتعه بالنظر إليه » فهذا الكلام مجمل ، فإن أرادوا بالمناسبة أنه ليس بينهما توالد فهذا حق ، وإن أرادوا أنه ليس بينهما من المناسبة ما بين الناكح والمنكوح والآكل والمأكول أو نحو ذلك فهذا أيضاً حق ، وإن أرادوا أنه لا مناسبة بينهما توجب أن يكون أحدهما محباً عابداً والآخر معبوداً محبوباً فهذا هو رأس المسألة ، فالاحتجاج به مصادر على المطلوب ، ويكفي في ذلك المنع .

ثم يقال بل لا مناسبة تقتضي المحبة الكاملة إلا المناسبة التي بين المخلوق والخالق الذي لا إله غيره الذي هو في السماء إله وفي الأرض إله ، وله المثل الأعلى

(٢٩٠) سورة الشعراء : الآية ٧٥ .

(٢٩١) سورة الأنعام : الآية ٧٦ .

(٢٩٢) سورة الشعراء : الآية ٨٨ .

في السموات والأرض . وحقيقة قول هؤلاء جحدكون الله معبوداً في الحقيقة ، ولهذا وافق على هذه المسألة طوائف من الصوفية المتكلمين الذين ينكرون أن يكون الله محباً في الحقيقة ، فأقروا بكونه محبوباً ومنعوا كونه محباً ؛ لأنهم تصوفوا مع ما كانوا عليه من قول أولئك المتكلمة ، فأخذوا عن الصوفية مذهبهم في المحبة وإن كانوا قد يخلطون فيه ، وأصل إنكارها إنما هو قول المعتزلة ونحوهم من الجهمية فأما محبة الرب عبده فهم لها أشد إنكاراً . ومنكروها قسماً :

(قسم) يتأولونها بنفس المفعولات التي يحبها العبد فيجعلون محبته نفس خلقه .

و (قسم) يجعلونها نفس إرادته لتلك المفعولات . وقد بسطنا الكلام في ذلك في « قواعد الصفات والقدر » وليس هذا موضعها .

ومن المعلوم أنه قد دل الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة على أن الله يحب ويرضى ما أمر بفعله من واجب ومستحب ، وإن لم يكن ذلك موجوداً ، وعلى أنه قد يريد وجود أمور ييغضها ويسخطها من الأعيان والأفعال كالفسق والكفر ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الْفُسَادَ ﴾^(٢٩٣) وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾^(٢٩٤) .

والمقصود هنا إنما هو ذكر محبة العباد لإلههم .

السماع القرآني والسماع الشيطاني

وقد تبين أن ذلك هو أصل أعمال الإيمان ، ولم يتبين بين أحد من سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان نزاع في ذلك ، وكانوا يحركون هذه المحبة بما شرع الله أن تحرك به من أنواع العبادات الشرعية كالعرفان الإيماني

(٢٩٣) سورة البقرة : الآية ٢٠٥ .

(٢٩٤) سورة الزمر : الآية ٧ .

والسمع الفرقاني ، قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ (٢٩٥) إلى آخر السورة .

ثم إنه لما طال الأمد صار في طوائف المتكلمة من المعتزلة وغيرهم من ينكر هذه المحبة .

وصار في بعض المتصوفة من يطلب تحريكها بأنواع من (سماع الحديث (٢٩٦) كالتغبير (٢٩٧) وسماع المكاء والتصدية ، فيسمعون من الأقوال والأشعار ما فيه تحريك جنس الحب الذي يحرك من كل قلب ما فيه من الحب بحيث يصلح لمحبة الأوثان والصلبان والإخوان والأوطان والمردان والنسوان كما يصلح لمحبة الرحمن ، ولكن كان الذي يحضرونه من الشيوخ يشترطون له المكان والإمكان والخلان ، وربما اشترطوا له الشيخ الذي يحرس من الشيطان ، ثم توسع في ذلك غيرهم حتى خرجوا فيه إلى أنواع من المعاصي ، بل إلى أنواع من الفسوق ؛ بل خرج فيه طوائف إلى الكفر الصريح بحيث يتواجدون على أنواع من الأشعار التي فيها الكفر والإلحاد ، مما هو من أعظم أنواع الفساد ، وينتج ذلك لهم من الأحوال بحسبه ، كما تنتج لعباد المشركين وأهل الكتاب عباداتهم بحسبها .

والذي عليه محققو المشائخ أنه كما قال الجنيد رحمه الله : من تكلف السماع فتن به ، ومن صادفه السماع استراح به . ومعنى ذلك أنه لا يشرع الاجتماع لهذا السماع المحدث ، ولا يؤمر به ، ولا يتخذ ذلك ديناً ، وقربة ، فإن القرب والعبادات إنما تؤخذ عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، فكما أنه لا حرام إلا ما حرمه الله ولا دين إلا ما شرعه الله .

(٢٩٥) سورة الشورى : الآية ٥٢ .

(٢٩٦) ذكر ابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس) أن المغيرة قوم يغبرون ذكر الله بدعاء وتضرع ، وقد وسموا ما يطربون فيه من الشعر في ذكر الله عز وجل تغبير . وقال : كان الشافعي يكره التغبير .

(٢٩٧) في المخطوط : السماع كسماع التغبير .

قال الله تعالى : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ (٢٩٨) ولهذا قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ (٢٩٩) فجعل محبتهم لله موجبة لمتابعة رسوله ، وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الله لهم .

[كلام نفيس لأبي بن كعب رضى الله عنه]

قال أبى ابن كعب رضى الله عنه : عليكم بالسبيل والسنة ، فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله فاقشعر جلده من مخافة الله إلا تحاتت عنه خطاياهم ، كما يتحات الورق اليابس عن الشجرة ، وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبداً ، وأن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهد في خلاف سبيل وسنة ؛ فاحرصوا أن تكون أعمالكم اقتصاداً واجتهاداً على منهاج الأنبياء وسنتهم . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

فلو كان هذا مما يؤمر به ويستحب وتصلح به القلوب للمعبود المحبوب لان ذلك مما دلت الأدلة الشرعية عليه ، ومن المعلوم أنه لم يكن في القرون الثلاثة المفضلة التي قال فيها النبي ﷺ : « خير القرون قرنى الذى بعثت فيه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » (٣٠٠) لا في الحجاز ، ولا في الشام ، ولا في اليمن ، ولا في العراق ، ولا في مصر ، ولا في خراسان أحد من أهل الخير والدين يجتمع على السماع المبتدع لصالح القلوب ، ولهذا كرهه الأئمة كالإمام أحمد وغيره ، حتى عده الشافعى من إحداث الزنادقة حين قال : خلفت ببغداد شيئاً [أحدثه] (٣٠١) الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن .

وأما ما لم يقصده الإنسان من الاستماع فلا يترتب عليه لا نهى ولا ذم باتفاق الأئمة ؛ ولهذا إنما يترتب الذم والمدح على الاستماع لا على السماع ،

(٢٩٨) سورة الشورى : الآية ٢١ .

(٢٩٩) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

(٣٠٠) أخرجه البخارى (٣٦٥٠) ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه .

(٣٠١) فى المخطوط : أحدثته .

فالمستمع للقرآن يثاب عليه والسماع له [من غير]^(٣٠٢) قصد وإرادته لا يثاب على ذلك إذ الأعمال بالنيات . وكذلك ما ينهى عن استماعه من الملامى لو سمعه السامع بدون قصده لم يضره ذلك ، فلو سمع السامع بيتاً يناسب بعض حاله [فحرك] ساكنه [المحمود]^(٣٠٣) وأزعج قاطنه المحبوب أو تمثل بذلك ونحو ذلك لم يكن هذا مما ينهى عنه ، وكان الحمد الحسن حركة قلبه التى يحبها الله ورسوله إلى محبته التى تتضمن فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه الله ، كالذى اجتاز بيتاً فسمع قائلاً يقول :

كل يوم تتلون غير هذا [بك]^(٤٠٣) أجمل

فأخذ منه إشارة تناسب حاله ؛ فإن الإشارات من باب القياس والاعتبار وضرب الأمثال .

ومسألة « السماع » كبيرة منتشرة قد تكلمنا عليها فى غير هذا الموضع . والمقصود هنا أن المقاصد المطلوبة للمريدين تحصل بالسماع الإيماني القرآنى النبوى الدينى الشرعى الذى هو سماع النبیین ، وسماع العالمين ، وسماع العارفين ، وسماع المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبیین من ذرية آدم ﴾^(٣٠٥) إلى قوله : ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ﴾^(٣٠٦) إلى قوله : ﴿ ويزيدهم خشوعاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من

(٣٠٢) فى المخطوط : بدون .

(٣٠٣) فى المخطوط : المحمود .

(٣٠٤) فى المخطوط : بل .

(٣٠٥) سورة مريم : الآية ٥٨ .

(٣٠٦) سورة الإسراء : الآية ١٠٧ .

الحق ﴿٣٠٧﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٣٠٨) .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ (٣٠٩) الآية .

وكما مدح المقبلين على هذا السماع فقد ذم المعرضين عنه في مثل قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لِبُذُلٍ لِّلْحَدِيثِ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بَغِيرَ عِلْمٍ وَيَتَّخِذُهَا هُزُوًا ﴾ (٣١٠) إلى قوله : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلى مُّسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (٣١١) وقال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَفْرِفَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ (٣١٢) .

وقال تعالى : ﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ (٣١٣) الآية وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٣١٤) وقال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَفْرِفَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ (٣١٥) ومثل هذا كثير في القرآن .

(٣٠٧) سورة المائدة : الآية ٨٣ .

(٣٠٨) سورة الأنفال : الآية ٢ .

(٣٠٩) سورة الزمر : الآية ٢٣ .

(٣١٠) سورة لقمان : الآية ٦ .

(٣١١) سورة الفرقان : الآية ٧٣ .

(٣١٢) سورة المدثر : الآية ٤٩ .

(٣١٣) سورة الأنفال : الآية ٢٢/٢٣ .

(٣١٤) سورة فصلت : الآية ٢٦ .

(٣١٥) سورة المدثر : الآية ٤٩ .

وهذا كان سماع سلف الأمة وأكابر مشائخها وأئمتها كالصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشائخ كإبراهيم بن أدهم ، والفضيل بن عياض ، وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، ويوسف بن أسباط ، وحذيفة المرعشي وأمثال هؤلاء .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري : يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يسمعون ويكفون . وكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ القرآن والباقي يستمعون وقد ثبت في الصحيح : « أن النبي ﷺ مر بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته وقال لقد أوتي هذا مزماراً من مزامر آل داود » (٣١٦) وقال : « مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك فقال : لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبراً » (٣١٧) أي لحسنه لك تحسيناً وقال ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم » (٣١٨) .

(٣١٦) أخرجه البخاري (٩٢/٩ - فتح) ومسلم (٧٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣١٧) أخرجه الحاكم (٤١٦/٣) وأبو نعيم في الحلية (٢٥٨/١) من طريق خالد بن نافع ثنا سعيد بن أبي بردة عن أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه . قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي قلت : وليس كما قال ، فإن فيه خالد بن نافع الأشعري وهو ضعيف .

وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٨٠/٤) : من حديث أنس بن مالك : أن أبا موسى الأشعري قام ليلة يصلي فسمع أزواج النبي ﷺ ، صوته - وكان حُلُو الصوت - فممن يستمعن ، فلما أصبح قيل له إن النساء كن يستمعن ، فقال : لو علمت لحبرتك تحبراً ولشوقتك تشويقاً .

قال الحافظ في الفتح (٩٣/٩) : إسناده على شرط مسلم . (٣١٨) أخرجه البخاري معلقاً مجزوماً به (٥١٨/١٣ - فتح) وأخرجه أبو داود (١٤٦٨) والنسائي (١٠١٦) وابن ماجه (١٣٤٢) والدارمي (٣٥٠١) وأحمد (٢٨٣/٤) ، (٢٨٥) وابن حبان (٦٤/٢) والحاكم (٥٧٥/١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعاً .

وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٥٨٠ .

وقال : « الله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » (٣١٩) - أذنا أى استماعاً - كقوله : ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ (٣٢٠) أى استمعت وقال ﷺ : « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به » (٣٢١) .

وقال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » (٣٢٢) .

ولهذا السماع من المواجيد العظيمة ، والأذواق الكريمة ، ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة مالا يتسع له خطاب ، ولا يحويه كتاب ، كما أن في تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان مالا يحيط به بيان .

ومما ينبغي التفطن له أن الله سبحانه قال في كتابه : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ (٣٢٣) قال طائفة من السلف ادعى قوم على عهد النبي ﷺ أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ الآية . فبين سبحانه أن | محبته | (٣٢٤) توجب اتباع الرسول ، وأن اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد ، وهذه محبة امتحن الله بها أهل دعوى محبة الله ، فإن هذا الباب تكثر فيه الدعاوى والاشتباه ؛ ولهذا

(٣١٩) أخرجه ابن ماجة (١٣٤٠) وابن حبان (٦٧/٢ - إحصان) والحاكم (٥٧١/١) من حديث فضالة بن عبيد وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع برقم ٤٦٣٣ .

(٣٢٠) سورة الإنشقاق : الآية ٢ .

(٣٢١) أخرجه البخارى (١٧٣/٩) ومسلم (٥٤٥/١ - عبد الباقي) وأبو داود (١٤٧٣) والنسائى (١٨٠/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً .
(٣٢٢) أخرجه البخارى (٤١٨/١٣ - فتح) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً .

(٣٢٣) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

(٣٢٤) فى المخطوط : محبة الله .

يروى عن ذى النون المصرى أنهم تكلموا فى مسألة المحبة عنده فقال : اسكتوا عن هذه المسألة [لئلا] تسمعها النفوس فتدعيها .

وقال بعضهم : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حرورى ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد ، وذلك لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع فى أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله حتى قالت اليهود والنصارى ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾^(٣٢٥) ويوجد فى مدعى المحبة من مخالفة الشريعة ما لا يوجد فى أهل الخشية ولهذا قرن الخشية بها فى قوله : ﴿ هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ﴾^(٣٢٦) .

وكان المشايخ المصنفون فى السنة يذكرون فى عقائدهم مجانبه من يكثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية ، لما فى ذلك من الفساد الذى وقع فيه طوائف من المتصوفة ، وما وقع فى هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية ، حتى صار المنحرفون صنفين . صنف يقر بحقها وباطلها .

وصنف ينكر حقها وباطلها كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه . والصواب إنما هو الإقرار بما فيها وفى غيرها من موافقة الكتاب والسنة والإنكار لما فيها وفى غيرها من مخالفة الكتاب والسنة .

وقال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾^(٣٢٧) ، فاتباع سنة رسوله ﷺ وشريعته باطنياً وظاهراً هى موجب محبة الله ، كما أن الجهاد فى سبيله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها ، كما

(٣٢٥) سورة المائدة : الآية ١٨ .

(٣٢٦) سورة ق : الآية ٣٢ .

(٣٢٧) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

في الحديث : « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » (٣٢٨) ، وفي الحديث : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقد استكمل الإيمان » (٣٢٩) .

وكثير ممن يدعى المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنة وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهد في سبيل الله ، ويدعى مع هذا أن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غيرة ، ولا غضب لله وهذا خلاف ما دلّ عليه الكتاب والسنة ، ولهذا في الحديث المأثور : « يقول الله تعالى يوم القيامة أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » (٣٣٠) فقلوه أين المتحابون بجلال الله تنبيه على ما في قلوبهم من إجلال الله وتعظيمه مع التحاب فيه ، وبذلك يكونون حافظين لحدوده ، دون الذين لا يحفظون حدوده لضعف الإيمان في قلوبهم ، وهؤلاء الذين جاء فيهم الحديث « حقت محبتي للمتحابين فيّ ، وحقت محبتي للمتجالسين فيّ ، وحقت محبتي للمتزاوئين فيّ ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ » (٣٣١) والأحاديث في المتحابين في الله كثيرة .

(٣٢٨) أخرجه الطيالسي (٣٧٨) والطبراني في « الكبير » (١٠٥٣١) وفي الصغير (٢٢٣/١ - ٢٢٤) والحاكم (٤٨٠/٢) عن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً وصححه الشيخ الألباني برقم ٢٥٤٩ .

(٣٢٩) أخرجه أبو داود (٤٦٨١) والطبراني في « الكبير » (٧٦١٣) (٧٧٣٧) (٧٧٣٨) والبيهقي في الاعتقاد (١٧٨ - ١٧٩) والبخاري في « شرح السنة » (٥٤/١٣) والشجري في الأمل (١٤٠/٢ ، ١٥٠ ، ١٥٢) من طريق يحيى بن الحارث ، عن القاسم ابن عبد الرحمن عن أبي أمامة مرفوعاً به .

وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم ٥٩٦٥ .

(٣٣٠) أخرجه مالك (٩٥٢/٢) ومسلم (٢٥٦٦) وابن المبارك في الزهد (٧١١) والدارمي (٢٢١/٢) وأحمد (٢٣٧/٢ ، ٣٣٨) والطيالسي (٢٣٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣٣١) أخرجه مالك (٩٥٣/٢ - ٩٥٤) وابن سعد في الطبقات (٥٨٦/٣ - ٥٨٧) وعبد بن حميد (١٢٥) والحاكم (١٦٩/٤) والطبراني في « الكبير »

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة رضى الله عنه « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله رب العالمين » (٣٣٢) .

[أصل المحبة معرفة الله]

وأصل المحبة هو معرفة الله سبحانه وتعالى ولها أصلان :

(أحدهما) : وهو الذى يقال له محبة العامة لأجل إحسانه إلى عباده ، وهذه المحبة على هذا الأصل لا ينكرها أحد ، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها ، والله سبحانه هو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة ، فإنه المتفضل بجميع النعم ، وإن جرت بواسطة ؛ إذ هو ميسر الوسائل ، ومسبب الأسباب ، ولكن هذه المحبة في الحقيقة إذا لم تجذب القلب إلى محبة الله نفسه ، فما أحب العبد في الحقيقة إلا نفسه وكذلك كل من أحب شيئاً لأجل إحسانه إليه فما أحب في الحقيقة إلا نفسه ، وهذا ليس بمذموم بل محمود .

وهذه المحبة هي المشار إليها بقوله ﷺ : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبوا أهلى بحبى » (٣٣٣) والمقتصر على هذه المحبة هو لم يعرف

(٩٥٠) والبهوى في « شرح السنة » من حديث معاذ رضى الله عنه .

قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

قال ابن عبد البر : إسناده صحيح .

(٣٣٢) أخرجه البخارى (١٢/١١٢ - فتح) ومسلم (١٠٣١) من حديث

أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً .

(٣٣٣) تقدم تخريجه برقم : ٢٥٨ .

من جهة الله ما يستوجب أنه يحبه إلا إحسانه إليه ، وهذا كما قالوا : إن الحمد لله على « نوعين » :

« حمد » هو شكر ، وذلك لا يكون إلا على نعمته .

و « حمد » هو مدح وثناء عليه ومحبة له وهو بما يستحقه لنفسه سبحانه ، فكذلك الحب ، فإن الأصل الثاني فيه هو محبته لما هو [له] أهل ، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله ، وما من وجه من الوجوه التي يعرف الله بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه حتى جميع مفعولاته ، إذ كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ، ولهذا استحق أن يكون محموداً على كل حال ، ويستحق أن يُحمد على السراء والضراء وهذا أعلى وأكمل وهذا حب الخاصة .

وهؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظرة إلى وجهه الكريم ، ويتلذذون بذكره ومناجاته ، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك حتى لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم ما لا يطيقون ، وهم السابقون كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « مر النبي ﷺ بجبل يقال له : جمدان فقال : سيروا هذا جمدان ، سبق المفردون ، قالوا : يارسول الله من المفردون ؟ قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات »^(٣٣٤) وفي رواية أخرى قال : « المستهترون بذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون الله يوم القيامة خفافاً »^(٣٣٥) والمستهتر بذكر الله يتولع به ينعم به كلف لا يفتر منه .

وفي حديث هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قال موسى : يارب أي عبادك أحب إليك ، قال الذي يذكرني ولا ينساني ، قال : أي عبادك أعلم ؟ قال الذي يطلب علم الناس إلى علمه ليجد [كلمة]

(٢٣٤) أخرجه مسلم (٢٦٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢٣٥) أخرجه الترمذی (٣٥٩٦) من طريق عمر بن راشد عن يحيى بن كثير عن

أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال الترمذی : حديث حسن غريب .

قال الشيخ الألبانی : بل هو منكر ، وانظر لزماً السلسلة الصحيحة (٣٠٦/٣) .

تدله على هدى أو ترده عن ردى ، قال أى عبادك أحكم قال الذى يحكم على نفسه كما يحكم على غيره ويحكم لغيره كما يحكم لنفسه « فذكر فى هذا الحديث الحب والعلم والعدل وذلك جماع الخير .

ومما ينبغى التفطن له أنه لا يجوز أن يظن فى باب محبة الله تعالى ما يظن فى محبة غيره مما هو من جنس التجنى ، والهجر ، والقطيعة لغير سبب ونحو ذلك مما قد يغلط فيه طوائف من الناس ، حتى يتمثلون فى حبه بجنس ما يتمثلون به فى حب من يصد ويقطع بغير ذنب أو يبعد من يتقرب إليه ، وإن غلط فى ذلك من غلط من المصنفين فى رسائلهم حتى يكون مضمون كلامهم إقامة الحجة على الله ، بل لله الحجة البالغة .

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منه ، ومن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » (٣٣٦) . وفى بعض الآثار يقول الله تعالى : « أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل شكرى أهل زيارتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أؤيسهم من رحمتى ، وإن تابوا فأنا حبيهم - لأن الله يحب التوابين - وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم ابتليهم بالمصائب حتى أظهرهم من المعائب » .

وقد قال تعالى : ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ (٣٣٧) قالوا : الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره ، والهضم أن ينقص من حسنات نفسه . وقال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٣٣٨) وفى الحديث الصحيح عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ

(٣٣٦) أخرجه البخارى (٣٨٤/١٣ - فتح) ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً .

(٣٣٧) سورة طه : الآية ١١٢ .

(٣٣٨) سورة النحل : الآية ١١٨ .

قال : يقول الله تعالى : يا عبادى ! إني حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادى ! كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، يا عبادى ! كلكم جائع إلى من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم . يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى ! إنكم تذنبون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب ولا أبالى فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى ! إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص الخيط إذا غمس فى البحر ، يا عبادى ! إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٣٣٩) .

ومن ذلك ما روى البخارى [فى صحيحه] عن شداد بن أوس قال : « قال رسول الله ﷺ سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبي فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات فى يومه دخل الجنة ، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة » (٣٤٠) .

فالعبد دائماً بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر ، وذنب منه يحتاج فيه إلى (الاستغفار) ، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائماً فإنه لا يزال يتقلب فى نعم الله وآلائه ولا يزال محتاجاً إلى التوبة والاستغفار .

(٣٣٩) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه مرفوعاً .

(٣٤٠) أخرجه البخارى (٩٧/١١ ، ٩٨) من حديث شداد بن أوس رضى الله

عنه مرفوعاً .

ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين محمد ﷺ يستغفر في جميع الأحوال .

وقال ﷺ في الحديث الصحيح الذى رواه البخارى : « أيها الناس توبوا إلى ربكم فإنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » (٣٤١) وفى صحيح مسلم أنه قال : « إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » (٣٤٢) وقال عبد الله بن عمر : « كنا نعد لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد يقول رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الغفور مائة مرة » (٣٤٣) .

ولهذا شرع الاستغفار فى خواتيم الأعمال . قال تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ (٣٤٤) وقال بعضهم : أحيوا الليل بالصلاة فلما كان وقت السحر أمروا بالاستغفار ، وفى الصحيح « أن النبى ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً ، وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام » (٣٤٥) وقال تعالى : ﴿ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾ إلى قوله : ﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ (٣٤٦) وقد أمر الله نبيه بعد أن بلغ الرسالة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وأتى بما أمر الله به مما لم يصل إليه أحد غيره فقال تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت

(٣٤١) أخرجه البخارى (١٠١/١١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً بلفظ « والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

(٣٤٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) عن الأغر المزنى وكانت له صحبة أن رسول الله ﷺ قال : فذكره .

(٣٤٣) أخرجه أبو داود (١٥١٦) والترمذى (٣٤٣٠) وابن ماجه (٣٨١٤) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم (١٣٤٢) .

(٣٤٤) سورة آل عمران : الآية ١٧ .

(٣٤٥) أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان رضى الله عنه مرفوعاً .

(٣٤٦) سورة البقرة : الآية ١٩٨ .

الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسيح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴿٣٤٧﴾ .

ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار كما قال تعالى : ﴿الر ، كتاب أحكمت آيته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً﴾ (٣٤٨) الآية . وقال تعالى : ﴿فاستقيموا إليه واستغفروه﴾ (٣٤٩) وقال تعالى : ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ (٣٥٠) .

ولهذا جاء في الحديث « يقول الشيطان أهلك الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار » (٣٥١) وقد قال يونس : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ (٣٥٢) وكان النبي ﷺ : « إذا ركب دابته يحمد الله ثم يكبر ثلاثاً ويقول : لا إله إلا أنت سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي » (٣٥٣) وكفارة المجلس التي كان يختم بها المجلس « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك » (٣٥٤) والله أعلم وصلى الله على محمد وسلم .

(٣٤٧) سورة النصر .

(٣٤٨) أول سورة هود .

(٣٤٩) سورة فصلت : الآية ٦ .

(٣٥٠) سورة محمد : الآية ١٩ .

(٣٥١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٣٦) وابن أبي عاصم في السنة (٧) من حديث

أبي بكر رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ (عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار فأكثرُوا منهما فإن إبليس قال : أهلك الناس بالذنوب ، فأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار) .

قال الألباني في ظلال الجنة (١٠/١) : إسناده موضوع .

(٣٥٢) سورة الأنبياء : الآية ٨٧ .

(٣٥٣) أخرجه أبو داود (٢٦٠٢) والترمذي (٣٤٤٦) من حديث علي بن أبي

طالب رضي الله عنه . وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم ٢٢٦٧ .

(٣٥٤) أخرجه أبو داود (٤٨٥٩) والترمذي (٣٤٣٣) والدارمي (٢٦٥٨)

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم ٢٧٣٠ .

فهرس كتاب « أعمال القلوب » لابن تيمية

٣	مقدمة المحقق
٤	منهج العمل فى الكتاب
٥	وصف مخطوطة كتاب « أعمال القلوب »
٦	صورة المخطوطة
٧	مقدمة المصنف
٧	أعمال الأبدان
١٢	خطر البدعة وأثرها على التوبة
١٣	ضرر اتباع الهوى
١٤	الصدق يستلزم البر وهو جماع الدين
١٧	الصدق والتصديق فى الأقوال والأعمال
١٨	الإخلاص هو حقيقة الإسلام
٢٠	فصل : الأعمال الباطنة
٢٢	حقيقة التوكل
٢٤	معنى العبادة
٢٦	القضاء والقدر
	تقسيم الكلمات والأمر والإرادة والإذن والكتاب والحكم والقضاء
٢٨	والتحريم إلى كوفى وشرعى
٣٥	خوارق العادات
٣٧	صفته ﷺ فى التوراة
٤٢	عدم التعرض للبلاء
٤٣	الصبر وأحكامه
٤٥	الرضا وأحكامه

٤٨	من كمال الرضا الحمد
٥١	علامات التوبة النصوح
٥٤	فصل : محبة الله ورسوله ﷺ
٦٣	الرد على الحلولية
	فصل : الخوف والرجاء والرد على من يدعى أنه يعبد ليس شوقاً
٦٥	إلى جنته ولا خوفاً من ناره
٧٨	السماع القرآني والسماع الشيطاني
٨٠	كلام نفيس لأبي بن كعب رضي الله عنه
٨٧	أصل المحبة معرفة الله